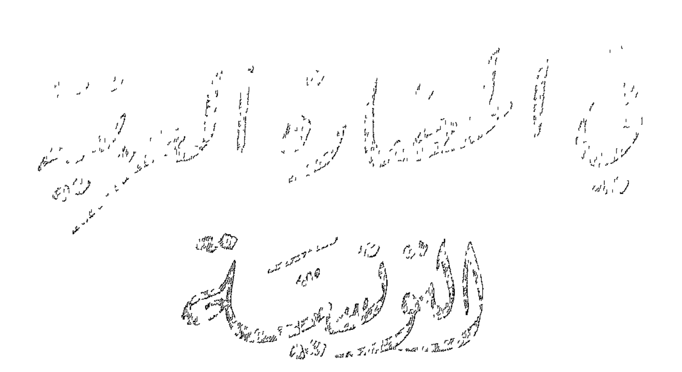
كتاب المعارف



الدكتور احمد الطويلي







كتاب المعارف يصدر عن دار المعارف

في الحضارة العربيّة التونسيّة

الدكتور احمد الطويلي



منشورات دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة/تونس

الإهـــداء

إلى ابني ياسين، هذه الورقات عن الحضارة العربية بتونس لينظر كيف أن النبراس مازال مضيئا عبر الأجيال إلى الأبد.

اشعاع تونس الحضاري في العهد الحفصي *

شهدت تونس خلال العهد الحفصي، من أوائل القرن السابع الهجري إلى العاشر ومن القرن الثاني عشر الميلادي إلى الخامس عشر ازدهارا ثقافيا، ونهضة عمرانية ونشاطا علميا، مما جعلها مركز اشعاع حضاري عظيم كان مبعث اعجاب كبير في نفوس من زارها إذّاك من الرحالين المغاربة والأندلسيين والغربيين والمشارقة، فكتبوا منوهين مشدوهين بما وصلت إليه تونس في عصرهم من نهضة أدبية وعلمية وثقافية وعمرانية بكثرة علمائها وأدبائها وشعرائها وزهادها من جهة، وبروعة مبانيها وتعدد جوامعها ومساجدها ومدارسها والتفنن في بناء القصور وتنضيد البساتين من جهة أخرى.

ولـيرجـع المرء إلى النصوص الراجعة إلى العهد الحفصي والتي كتبها هؤلاء الرحالون أمثال التجاني والبلوي والعبدري وابن رشيد وابن بطوطة والقلصادي وعبد الباسط بن خليل

---

* بحث القي في الندوة العلمية بقاعة المحاضرات بنزل المشتل بمناسبة الاحتفال بمرور 28 قرنا على تأسيس قرطاج، يوم 22 أكتوبر 1986.

وليون الافريقي وادورن (٦) أو كتبها مؤرخون أمثال الزركشي في "تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية" وابن الشماع في "الأدلة البينة النوارنية على مفاخر الدولة الحفصية" وابن قنفذ في "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" وابن خلدون في تاريخه، فسيجد تصويرا للمكانة الرفيعة التي بلغتها تونس بين البلدان بمعالمها الجميلة وقصورها المترفة وبساتينها التي تغني فيها النوافير وتهدل الأطيار وتتأرج الروائح . . . وبأخلاق أهلها العالية ولطف شمائلهم وتربيتهم الرفيعة . .

وقد حاولنا ان نرسم في أطروحتنا معالم هذه النهضة الفكرية والثقافية والأدبية وخصصنا فصولا طويلة لمجالس تونس العلمية والأدبية والشعرية التي كانت تعقد في الجوامع والمساجد والقصور وبيّنا دور العلماء والأدباء وما كانت تتميز به طرق التعليم التونسية من سمات جعلت الطلبة يقبلون من كل مكان لينهلوا ويعلوا من العلم بالحاضرة الحفصية .

فقد كانت تونس مركزا لتعليم العلوم وفنون الأدب خاصة البلاغة والنقد الأدبي والعروض والنحو والصرف ، وكانت مركزا لتأليف الكتب في شتى الاهتمامات الفكرية والأدبية، ولنا اليوم تصانيف كثيرة راجعة إلى العهد الحفصي كتبها

---

٦) ارجع إلى اطروحتنا "الحياة الأدبية في العهد الحفصي" فصل "قائمة نقدية للمصادر والمراجع .

أصحابها في تونس، وتعد اثارا فنية وأدبية ذات بال نذكر منها بعض تأليف ابن الأبار وحازم القرطاجني وابن عصفور وشرف الدين التيفاشي وابن شباط وأبي جعفر اللبلي إلى جانب التآليف الفقهية التي كانت وما تزال من المصادر الأساسية في الفقه المالكي مثل تأليف ابن عرفة وتلاميذه أبي القاسم بن ناجي وأبي القاسم البرزلي وأبي العباس البسيلي وأبي مهدي عيسى الغبريني وأبي عبد الله الأبي وأبي عبد الله الرصاع.

وكانت تونس مركزا لاحتكاك الأفكار والمناقشات الفقهية والخصومات الأدبية والمطارحات الثقافية بتشجيع من الملوك والوزراء وأصحاب الثروة. وكان مبعثها خاصة التنافس للتحصل على الخطط السامية في هذه البيئة الفكرية والأدبية العالية. وكانت المشاحنات تقع بين بعض الأدباء الأفارقة وبين بعض الأدباء الأندلسيين المهاجرين إلى تونس، مثلما كان بين أحمد الغساني وابن الأبار، أو بين الأندلسيين أنفسهم مثلما كان يحدث بين حازم القرطاجني وأبي المطرف بن عميرة وبين ابن الأبار ومن معه أو تقع هذه الخصومات بين الأدباء الأفارقة أنفسهم مثلما كانت تحتد بين ابن خلدون وابن عرفة وحزبيهما أو بين ابن راشد وخصومه وعلى رأسهم ابراهيم بن عبد الرفيع صاحب "معين الحكام على القضايا والأحكام" ومنهم محمد بن عبد السلام ومحمد بن هارون. وكانت هذه

المعارك والمنافسات الفكرية تؤدي أحيانا إلى القتل والاغتيال والتآمر لدى السلطان ليفتك بهذا أو ذاك مثلما كان بالنسبة إلى ابن عصفور، وابن الأبار واحمد اللياني . .

واشتهر الخلفاء الحفصيون عموما برعاية الأدباء وتشجيع الفنانين والراقصين (2) وتأسيس المؤسسات العلمية والدينية من جوامع ومدارس ومكتبات وزوايا نذكر منها خاصة مكتبة ابي زكرياء الاول وكانت كتبها لا تقل عن 36000 كتاب، والمكتبة الفارسية، والمكتبة العثمانية والمكتبة العبدلية الشهيرة.

وكان الكثير من الملوك والأمراء الحفصيين شعراء فحولا، أصحاب دواوين أحاطوا أنفسهم بعدد كبير من الأدباء والعلماء تونسيين ومغاربة وأندلسيين، كانوا يسنون لهم الجوائز، ويقدمون لهم الهبات، ويجرون لهم الرواتب، كما ان لبعضهم تآليف نثرية أدبية وعلمية ودينية، فكثر الشعراء المادحون من المشرق والمغرب والأندلس.

فلا عجب ان انعشوا الحياة الفكرية والأدبية بتونس ونفخوا في هذه المدينة الجديدة اذّاك روحا جديدة أصبح لها اشعاع عظيم، وصارت قطبا هاما من أهم خصائصه توافد الأدباء والشعراء والأطباء والعلماء عليه، وتكاثر المجالس

---

2) اسقط أبو فارس عبد العزيز مغارم وأداءات على القيان والراقصين، انظر تحفة الأريب لعبد الله الترجمان. مخطوط بدار الكتب الوطنية. تونس رقم 4374

الأدبية والفكـرية والغنـائية والفقهية به، وتواجد الكتب في المكتبـات العامة واالخاصة حتّى أصبح التجار يقبلون عليه لاقتناء العدد الوفير منها وتصديره للبلدان المشرقية والافريقية والمغربية.

الا ان أهم ما يلفت الانتباه هو ان تونس قد صدرت في هذا العهد العديد من العلماء الفطاحل إلى كثير من الحواضر المشرقية والأنـدلسية، وقـائمـة ما نعلمـه منهم من الأسـماء طويلة، نذكر منهم إلى جانب ابن خلدون، ابا عبد الله بن القوبع (ت 738)، قد حصل في مصر على تقدير علمي عريض، وحـظي بمكانة اجتماعية مهمة، عرف أدبيا فذا، وطبيبـا ماهـرا، وفيلسـوفـا كبـيرا وبرهان الدين الصفاقسي النحـوى واللغوى (ت742)، وأخاه شمس الدين، وقد اختـار الأول القاهرة مكانا لاقامته وألف فيها "المجيد في اعراب القرآن المجيد" في أربعة مجلدات بينما آثر الثاني دمشق وجلس في جامعها الأموي مقرئا ومؤلفا، وكلف فيها بوظائف عالية.

ومن العلماء المهـاجرين إلى مصر أبو المواهب بن زغدان (882) الصوفي صاحب التآليف العديدة في علم التصوف وأبو عبد الله محمد القلشاني (ت 890) شيخ تربة السلطان قايتبـاي وصـاحب الفتـاوى العديدة، ومن العلماء المقيمين بدمشق محمـد بن جابـر الـوادي آشي (ت 749) ومحمـد

مغوش (ت 947) وأبو الفتح محمد بن عبد السلام الخروبي (ت 977).

ومن المقيمين بالمدينة المنورة أيمن أبو البركات (ت 743) وبمكة محمد الوانوغي (ت 819) ومحمد بن عزم (ت 891) صاحب موسوعة "دستور الإعلام بمعارف الاعلام" في التراجم، والشاعر محمد اللواتي (ت 899) الخ . . .

وقد أصبحت تونس في العهد الحفصي عاصمة لا لإفريقية فحسب بل لجانب كبير من المغرب العربي بسبب الانتصارات العسكرية شرقي افريقية وجنوبيها، وظهرت الدولة الحفصية أقوى دولة في تلك الفترة، فقد شاهد أحد المؤلفين التونسيين، صاحب المختصر الفارسي في الطب الحجاج المسلمين في مكة والمدينة يدعون لأمير تونس خليفة للمسلمين، كما أن القصائد كانت تتوالى على تونس من الأندلس يستنجد فيها أصحابها الخلفاء الحفصيين للهبوب لاسترجاع الأراضي الأندلسية.

وأصبحت تونس مركز الخلافة الاسلامية لأسباب تاريخية ذكرها القلقشندي في "صبح الأعشى" يقول (3) :

"ان الخلافات الأموية ودعاوى بني عبد المؤمن قد زالت عنها في المغرب بغلبة بني مرين عليهم وانتزاعهم الأمر منهم،

---

3) ج 5، 134 من صبح الأعشى في صناعة الانشاء ط القاهرة 1963

وخلافة العبيديين قد زالت في مصر، وخلافة بني العباس قد زالت من بغداد باستيلاء التتر عليها وبايع أهل مكة المستنصر (ت 675) خليفة للمسلمين، وبعثوا البيعة إليه بانشاء ابن سبعين الصوفي وقرئت في موكب حافل، اهتزت لها تونس، وتلقب من يومئذ بأمير المؤمنين كما جاءته بيعة بني مرين بفاس وهاداه ملك برنو من السودان بهدايا نفيسة (4)

ومن ذلك الحين بدأ المستنصر يستعد ليجعل من بلده عاصمة للخلافة الحفصية، فإذا بتونس يتغير وجهها، وتضحى متأنقة العمران، مزدهرة بالقصور، مليئة بالبناءات الضخمة، فائحة بالبساتين منها رياض رأس الطابية وأبي فهر قرب أريانة، غرس فيها السلطان مختلف الأشجار المثمرة، وأقام فيها الجوابي مما ذكره ابن خلدون في تاريخه (ج 6) بعبارات التفخيم والاجلال والتخليد. ومما نوه به الشعراء في مدائحهم ووصفوه بكل تدقيق وتفصيل في دواوينهم تجديد الحنايا الرومانية الجالبة للمياه من زغوان إلى بساتين السلطان وجامع الزيتونة. وقد واكب الشعراء أعمال المستنصر الحضارية، فتناولوها بالرسم والتصوير، ولهجوا بمزاياها الجمالية . . .

---

4)انظر خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب ط الدار التونسية للنشر، د ت ص 130

ويمكن أن نحدد ذهاب المستنصر شوطا بعيدا في انجاز أعمال الأمة بعد فشل الحملة الصليبية التي شنها لويس التاسع على تونس ومغادرة الصليبيين قرطاج اثر وفاة لويس التاسع في 10 محرم 669 (31 أوت 1270).

فقد أمر المستنصر بتخريب قرطاج تخريبا نهائيا بعد أن كانت بعض معالمها قائمة، وأخذت تونس تعمر وتزدهر ببنيان القصور بحطام مدينة عليسة، بأعمدتها ورخامها.

يحدثنا ابن خلدون عن غزوة لويس التاسع وما ترتب عنها بالنسبة إلى آثار قرطاج يقول عن الصليبيين (5)

" فانزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنة وكانت ماثلة الجدران (. . .) ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب، ونضدوا شرفاتها وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى وتحصنوا وندم السلطان على اضاعة الحزم في تخريبها أو دفاعهم عن نزلها، وأقام ملك الفرنجة وقومه متمرسين بتونس ستة أشهر".

وبعد اقلاعهم "أمر السلطان بتخريب قرطاجنة وأن يؤتى بنيانها من القواعد فصير أبنيتها طامسة (6)"

---

5) التاريخ ج 6، ص 293، بيروت، 1959.

6) ص 294 من نفس المرجع وانظر معجم البلدان لياقوت الحموي، بيروت 1959، ص 60 و 62

وقد انتشل الحفصيون افريقية من الفوضى والاضطرابات والانقسام إلى دول طائفية انتصبت بأهم المدن الافريقية من بينها تونس، فلم ينجحوا فقط في توحيد افريقية واقامة حكم مركزي بالعاصمة التونسية بل أيضا وسعوا حكمهم جنوبا إلى طرابلس وجنوب الصحراء إلى حدود توغرت ووارکلا وغدامس، وغربا إلى الجزائر ففاس، ولم يرد ابو زكرياء الحفصي وخلفاؤه من بعده الا القضاء على الفتن التي كان أهم عامل من ورائها القبائل الأعرابية من بني هلال وسليم وما انفكت منذ هجومها على القيروان تمثل سببا رئيسيا للتخريب وعدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي والتدهور الاقتصادي واستطاعت الدولة الحفصية ان تستمر اكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن، متغلبة أحيانا كثيرة على التناقضات القبلية، وموطدة للأمن والاستقرار.

وارتبطت بمعاهدات اقتصادية مع بعض الدول الأوروبية مما تناوله الأستاذ روبير برنشفيغ في اطروحته عن تاريخ الدولة الحفصية (7).

وكانت بداية تألق تونس واشعاعها الحضاري منذ استقل أبو زكرياء الحفصي (597 ـ 647 هـ) بافريقية وكاتب

7) انظر La Berberie Orientale sous les Hafsides des Origines à la fin du XVème siècle. Paris 1982 T. 1 pp 25 - 29 - 43 - 44.

انحاءها بخلع المأمون الموحدي والاقتصار على الدعاء للمهدي والخلفاء الراشدين سنة 627 هـ ، ومنذ ذلك الحين عزم على التوسع والاستيلاء على المزيد من البلدان غرب افريقية فحاصر قسنطينة سنة 628 هـ وفتحها، ثم فتح بجاية وولى عليها اخاه أبا عبد الله اللحياني. وبدأ يخطط لتوزيع عاصمته عمرانيا، فبنى المصلّى خارج باب منارة سنة 627 هـ ثم شرع في بناء جامع القصبة ودام تشييد البناء طيلة أربع سنوات ولم يكتمل إلا سنة 633.

وبدأ بتخصيص أسواق للمهن والحرف والصناعات حول جامع الزيتونة وفي أطراف المدينة منها ما هو باق إلى اليوم مثل أسواق الصباغين والعطارين، والشماعين والجلادين وأسواق الذهب والفضة والزجاج والنقش على النحاس وبعض المعادن.

وقد ساعدت أبا زكرياء الظروف السياسية والحربية بالأندلس على ان تأتيه البيعة من أهل بلنسية سنة 636، أرسلو له وفدا برئاسة أبي عبد الله بن الأبار (ت 658) يستنجدون به، وألقى هذا الشاعر في حفل مشهود قصيدة شهيرة سارت بها الركبان في تلك الفترة أولها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل إلى منجاتها دَرَسَا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست

فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وفي نفس هذه السنة 636 ، افتتح أبو زكرياء بلد الجزائر وبجاية وولى عليها ابنه أبا يحيى ثم تحرك إلى تلمسان وحاصرها وأخذها وهكذا استوفى فتح المغرب الأوسط .

وحين وفاة أبي زكرياء في 22 جمادى الثانية 647 بظاهر بونة ترك لابنه المستنصر (ت 675) ملكا واسعا، وحاشية جل أفرادها من العلماء والأدباء والشعراء من افريقية والأندلس وما لبث السلطان الجديد ان تسمى بأمير المؤمنين بعد ثلاث سنوات من ولايته، بعد ان ذاع صيته في الحرمين الشريفين حيث حررت له البيعة بالخلافة كما بينا أعلاه وأخذ المستنصر يواصل عمل والده، وشرع في التفكير بأن تكون تونس أهلا للخلافة، فإذا بوجهها يتغير، وتضحي متأنقة العمران، مزدهرة بالقصور، حافلة بالبناءات الفخمة، فائحة بالبساتين والرياض منها رياض السلطان بأبي فهر قرب أريانة، وبرأس الطابية .

ومن أعمال المستنصر الحضارية ترميمه للحنايا الرومانية وايصالها إلى رياضه وجامع الزيتون، وقد لهج الشعراء بهذه الأعمال فوصفوها ونوهوا بمزاياها الجمالية . . .

وقد تألقت مجالسه الأدبية والفنية بألمع شعراء عصره من الأنـدلس والمغـرب وافـريقية، وسـيروا شعـرهم فيه مشرقا ومغربا، وضمت هذه المجالس بالاضافة إلى الشعراء صفوة من الـلغـويين والمـؤرخـين والـكـتـاب والعلماء في شتى الفنـون . . . وكـان المستنصر مثـل والـده ملكا قويا، محبا للأدب، شاعرا جعل من تونس مركزا للعلم والأدب والثقافة الاسـلامية في العالم العربي . . . واصطبغ انتاج هذه الفترة الأدبي بالـترف الفني والـرقة في تناول الأغراض مما ينم على وصول تونس درجة عالية من الحضارة.

وبوفاة المستنصر في 11 ذي الحجة 675، ورغم دخول البلاد في فترة اتسمت بالفوضى السياسية وكثرة الانقلابات وتـوالي الاغتيالات، فإن تونس لم تخمـد فيها جذوة الأدب والعلم. فقد تخرجت عن الجيل الأول أجيال من الأدباء عرفوا بدسامة المنتوج الفكري والأدبي نذكر منهم ابن خلدون وابن عرفة وأفراد عائلة التجاني، وفي هذه الفترة الثانية التي تبتدئ بوفاة المستنصر إلى سنة 772 سنة دخول السلطان احمد إلى القصبـة تكـونت المدرسة الفقهية التونسية برئاسة ابن عرفة وازدهرت صناعة الكتابة في ديوان الانشاء وتولى اعباءها الفنية خاصة أفراد من عائلة التجاني. ووصلت الحياة الاجتماعية إلى أوجهـا الحضـاري. ففي عهـد أبي يحي أبي بكر (692 ـ

747) "كان بتونس ازيد من 700 حانوت للعطارة، وكان يصنع بتونس كل يوم 4000 قفيز من القمح ألف تبلّ، وألف تطحن وألف تغربل وألف تعجن، وزهت البلاد في أيامه" (8).

وقد عاد الاستقرار السياسي إلى تونس بعد دخول أبي العباس احمد إلى العاصمة، وفي حياة هذا السلطان الذى حكم من 772 إلى 796، وحياة من خلفه أبو فارس عبد العزيز (796 ـ 837) وابو عمرو عثمان (839 ـ 893) ظهر مؤرخون كبار أمثال الزركشي وابن قنفذ وابن الشماع وابن خلدون أرخوا لتونس المدينة منذ العهد الاسلامي ووضعوا في تواريخهم علامات نيرة للحركة الثقافية والنشاط الأدبي بالبلاد ورسموا اشارات واضحة لازدهارها العلمي والثقافي واشعاعها الحضاري الكبير.

وبموت أبي عمرو عثمان دخلت البلاد في فترة مد لهمة تولّى فيها الحكم سلاطين ضعاف متكالبون على الحكم، استنجدوا بالاسبان فأكلتهم الفتنة. وأتى الاحتلال الاسباني بتونس على الأخضر واليابس، وكان من نتائج الغزو الاسباني :

---

8) المؤنس لابن ابي دينار، ط ـ 1350، ص 128 عن ابن الشماع.

1) القضاء على كثير من معالم المدينة الحضارية بتقويض القصـور وهـدم البنـاءات والـدور، وتقليع الاشجار وحمل الذخائر والكنوز الفنية مثل بعض سواري جامع الزيتونة إلى اسبانيا (9).

2) حرق المخطوطات المحفوظة بجامع الزيتونة واتلافها والعبث بها . اذ اصـطبغت هذه الغزوة بروح عنصرية وكره الاسلام والمسلمين ورغبة في تنصير البلاد .

3) هجرة العلماء والأدباء والشعراء إلى المشرق والمغرب نذكر منهم ابا عبد الله محمد مغوش وأبا الفتح بن عبد السلام الخروبي وجار الله أبا عبد الله محمد بن خروف وأبا عبد الله اللواتي وهم من ألمع شعراء عصرهم .

4) وأنجـر عن ذلك ضياع الثقافة التونسية وخبو نجم الاداب بتونس إلى ظهور العهد الحسيني فشروق العهد الجمهورى .

ومجمل القول ان تونس كانت مركز اشعاع حضارى عظيم طيلة العهـد الحفصي ، وقـد دام هذا الاشعاع حوالي أربعة قرون منـذ دخـول أبي زكرياء تونس سنة 625 إلى احتلال

---

9) انظر Paul Sebag . Une relation inédite sur la prise de Tunis par les Turcs en 1574, Publication de l'Université de Tunis. Faculté des lettres et Sciences Humaines TUNIS 1971.

العثمانيين لها وحمل السلطان محمد الحفصي إلى القسطنطينية في 6 جمادى الأولى سنة 981 . اذ عرفت تونس في كثير من الفترات الاستقرار السياسي والازدهار العمراني وتألق الحياة الفكرية والأدبية والرخاء الاقتصادى والأمن الاجتماعي .

وأهم ما نبرزه تطور العمران ببناء الأسواق واقامة القصور والمنتزهات باريانة وراس الطابية وباردو والمرسى وتشييد الحصون وتطويق العاصمة بالبساتين الشذية بالرياحين والمزهرة بالأشجار المثمرة وتعميرها بالمساجد والجوامع والزوايا .

ويمكن أن نعتبر ما جاء في كتاب "المؤنس في أخبار افريقية وتونس" لأبي عبد الله الرعيني القيرواني (ت بعد 1092 هـ •) شهادة عن الاشعاع الحضاري ، الثقافي والعلمي التونسي في عهد بني حفص . وقد تضمن هذا التأليف نزعة تمجيدية واضحة قصد إليها المؤلف حين عنون كتابه بالمؤنس . فنرى ابن ابي دينار القيرواني الأصل والمنشأ يمجد العهد الحفصي ويتغنى به في أكثر من مناسبة . يقول عن تونس (10) :

"انها عروس بلاد المغرب ، ونزهة الاقليم الافريقي ، ودار

---

10) ص 3

الخلفاء من بني أبي حفص، وهي أشهر من نار على علم، وخبرها روته الثقاة بالنقل والنص".

وأفرد المؤلف الباب الأول من تصنيفه للتعريف بتونس الحاضرة باسمائها وجامعها وبعض آثارها كما خصص فصول الخاتمة لمظاهر من الاشعاع العلمي والثقافي بتونس. ومما قاله منوها بالأيام الحفصية : "كانت أيام بني أبي حفص في أول بدايتهم من غرر الأيام، وانتشرت دولتهم حتى عمت بلاد الاسلام" (11) وقبل ذلك يقول عن تونس (12).

"قامت بها الدولة الحفصية فعظم قدرها بين البلاد وما ذلك إلا لأنهم قاموا مقام الخلفاء وخطب لهم بأمير المؤمنين وجاءتهم البيعة من الأندلس ومن مكة شرف الله تعالى قدرها سنة 657، فحينئذ ضخم أمر تونس وشدت إليها الرحال، وهوجر إليها من كل البلاد".

وفي الفصل الثالث من الخاتمة الخاص بها "تميزت به الديار التونسية وما تفتخر به بين أحبابها" يقول (13) : "اعلم أيها الواقف على هذا المجموع ان لتونس مفاخر جمة لو استقصيناها لطال بنا المجال وخرجنا عن الحد ولكن نأتي

---

11) ص 270

12) ص 262

13) ص 274 وانظر ص 12.

من كل شيء بطرف. وقد كانت قبل هذا الزمان في غاية من الشرف، وأهلها في النعيم والترف، بحيث لم تكن بلد تضاهيها، ونفوس أهلها مطمئنة بامنها وأمانيها، وكانت محط الرحال، ومبلغ الآمال (. . .) وإذا افتخرت مدينة من مدن المغرب فما أحق الفخر بتونس، وإذا حل بها غريب نال التانس من تونس ».

الحياة الثقافية بافريقية في القرنين *
السابع والثامن الهجريين

ان البـاحث في الحياة الثقافية بتونس في القرنين السابع والثامن الهجريين، خلال الفترة التي عاش بها العالم والأديب القفصي محمـد بن عبد الله بن راشد القفصي (ت 736) يقف على نشاط ثقافي مهم، اذ زخرت البلاد أثناء هذه الفترة بعدد كبير من أهل الأدب، وأقيم صرح العديد من المدارس، وأقبل الناس على التعلّم، وتعددت التآليف الأدبية والعلمية والتاريخية، وتوفر عدد من الرحلات تدلنا على ما كانت تتميز به العاصمة الحفصية تونس وبعض المدن الافريقية من حركة أدبية وعلمية اتسمت بعـطاء كثير من الأدباء واللغـويين الأندلسيين اختاروا تونس دار مقام، أخذ عنهم علماء وأدباء افريقية ومن ضمنهم ابن راشد. ومن هؤلاء نذكر أحمد بن الغماز ومحمد بن الأبار وحازم القرطاجني.

---

* بحث ألقي في ملتقى ابن راشـد القفصي بقفصة يوم 6 ديسمبر 1986 بمناسبة إحياء ذكرى مرور 750 عاما على ميلاده.

الا أنه يحسن بنا قبل تناول الظواهر الأدبية في هذا العهد أن نميز بين أربـع فترات في الحياة الأدبية والفكرية بالعهد الحفصي، عاش فيها ابن راشد الفترتين الأوليين :

الفترة الأولى هي فترة الانبعاث والتألق في الحياة الأدبية، وتوافق الفترة التي شيد فيها أبو زكرياء الحفصي الأول أركان الدولة الحفصية بتونس وواصل دعمها ابنه وخليفته المستنصر بالله، وهي تبتدئ من سنة 625 هـ وهي سنة دخول أبي زكرياء لتونس إلى سنة وفاة المستنصر سنة 675 هـ. وقد ظهر في هذه الحقبة الممتدة نصف قرن، أدباء عظام من كتاب وشعراء ونحاة وبلاغيين، وقد اتضح وجود تيارين اثنين في المدرسة الأدبية التونسية : التيار الأندلسي ويمثله الوافدون على عاصمة الدولة الجديدة، والتيار الافريقي التونسي ويمثله أدباء وفدوا من داخل افريقية أو من أصيلي تونس، وقد شجع الخليفتان الحفصيان الأولان هؤلاء الأدباء وأغدقا عليهم المنح والرواتب والجوائز المختلفة مما أنشأ جوا من التنافس العلمي الخطر سادته أحيانا كثيرة الرغبة في الاطاحة بالخصم بالتآمر وحوك الدسائس وحتى الاغتيال.

نذكر من الاتجاه الأول ابن الأبار وحازم القرطاجني واللبلي وأبا المطرف بن عميرة وابن سعيد وابن سيد الناس وابن عصفور وابن غماز والبياسي وابن أبي الحسين وابن حبيش،

ومن الاتجاه الثاني أحمد الغساني وعنان بن جابر والتيفاشي القفصي والزناتي الحنفي ومحمد بن محمد الطائي القفصي وأبو علي التوزري وأبو زكرياء الكومي وابن عربية الأب والابن والليياني والرعيني السوسي وابن بزيزة وابن أبي الحواجب المهدوي وابن البرا المهدوي وابن معمر الطرابلسي وابن شباط والكبّبو شاعر الدعي ابن ابي عمارة وابن أبي الدنيا وابن أبي تميم وابن هريرة وعبد الواحد القيرواني وابن الشباط وابن الدباغ واب حسينة وغيرهم كثير ممن ترجمنا لهم في اطروحتنا .

وقد تبين لنا في الفترة الأولى تغلب الاتجاه الأدبي على الاتجاه الفقهي ، فقد تقلصت المدرسة المالكية بالعاصمة الحفصية لفائدة الأدب والتاريخ والنحو والصرف واللغة بعوامل تاريخية ومذهبية واجتماعية عديدة خاصة بسبب ميل أبي زكرياء الحفصي وابنه المستنصر إلى جني ثمار الأدب بل انهما كانا شاعرين فحلين، بقي جزء مهم من ديوان الأول بينما تلاشى ديوان الثاني ولم يخلد سوى أبيات قليلة . ثم بسبب توافد المراكب المليئة بالمهاجرين الأندلسيين من التجار والفلاحين وخاصة من الأدباء والشعراء على المواني الافريقية خاصة بنزرت وتقلص مدرسة القيروان المالكية بعد تشتت فقهائها اثر الغزو الهلالي الافريقي وسقوط عاصمة الصنهاجيين بين ايدي الغزاة لا سيما وان المذهب الموحدي

يدعو إلى دراسة الأصول والتخلي عن دراسة الرسائل الفقهية التي كان ألفها ائمة المذهب المالكي . وان دارس تآليف المهدي بن تومرت : "التوحيد" و"العقيدة" و"المرشدة" ليجد ان المهدي يرى تحصيل الفقه بخمس وسائل : بدراسة الحديث النبوي الشريف ثم سنده ثم متنه ثم التميز بين صحيحه وسقيمه، وأخيرا معناه ومراميه . ويرفض اجتهاد الفقهاء ويعتبره لاغيا . بل ان دراسة الفقهاء تقود حتما في رأيه إلى الخطإ والخطل والعبث (1)، وان كتب الفروع تحتوي على التناقض والاختلاف وتبعث على الظنون حسب نظرته أيضا وحسب قولد زيهر فان العنصر الأساسي في المذهب الموحدي يمكن تلخيصه في هذه البديهية وهي ان العقل ليس له في الشرع مجال (2)، وإذن فان الحكم الموحدي في الفترة الأولى من الدولة الحفصية كان يهتم بكتب الأحاديث فقط، لذلك نرى في كتب الفهارس ان المؤلفين كان معظم انتاجهم يرتكز على جمع الأحاديث في اغراض عديدة بينما كانت المدرسة الفقهية المالكية القيروانية تتراجع، وسوف لا يبزغ نورها من جديد الا اثناء الفترة الثانية والثالثة والرابعة حين أصيبت

---

1) انظر ص 254 ـ 255 من كتاب

Alfred Bel : La religion musulmane en Berberie, esquisse d'histoire et de sociologie religieuse, Tome 1, Paris, 1938

2) نفس المرجع

الدولة الحفصية بالوهن، وتراجع أمرها منذ تولي الواثق بالله الحكم سنة 675 إلى آخر عهدها. (3)

أما الفترة الثانية التي تعنينا وهي تبدأ من موت المستنصر في هذه السنة إلى سنة ولاية أبي يحيى أبي بكر في سنة 732 أي قبل وفاة ابن راشد باربع سنوات فقد سيطرت فيها النزعة الفقهية على الأدب وسائر الفنون ووصلت المدرسة المالكية الفقهية إلى أوجها بظهور ابن عرفة وتلامذته، وخاصة تلميذاه القيروانيان النجيبان البرزلي وابن ناجي. وقد تغلّب ابن عرفة على منافسيه واستأثر على معاصريه بالمكانة الاجتماعية المرموقة وبالحظوة المكينة لدى السلطة، مما جعل الأدب يتقلّص، ويشتكي ممارسوه من الفقر والبؤس والحاجة. وان كتاب ابن الطواح "سبك المقال لفك العقال" ليعج بالوصف لما كان فيه كثير من الأدباء من وضع مزر حتى التجؤوا إلى الانضمام إلى بعضهم بعضا وتكوين زمرة سمّت نفسها بالفقراء، يدعون إلى القناعة والتزهد والنظر إلى الدنيا نظرة ملؤها التشاؤم واليأس. وان ابن راشد نفسه قد اشتكى

---

3) الفترة الثالثة من سنة 750 هـ إلى سنة 893 هـ وهي سنة وفاة أبي عمرو عثمان. وهو عهد طويل، رجعت تونس فيه إلى الاستقرار السياسي. والفترة الأخيرة من سنة 893 إلى 981 وهي فترة انحلال وفوضى وتكالب على الحكم وغزو أجنبي لتونس.

من هذا الوضع رغم انه فقيه أصولي. وكان يردد مثل هذه الاشعار في بعض تآليفه.

يقول علي ابن ابراهيم التجاني الأديب :

وجدي على اثنين العلى فيهما صحبة ذي الفضل وجود عليه
ذو الفضل موجود ولا مال لي فمقصدي سُدت سبيلي اليه
أنكد ما في الدهر اذلاله حرّا لنذل يبغي ما لديه
والنذل معذور على بخله من هو لو لا عرض في يديه ؟

ويقول أبو محمد بن هارون مصورا حاله وحال الأدباء في زمانه : (4)

ولـــلآداب ابنـــاء في بحر الفقر قد غرقوا
وكـــل منهـــم وجـــل بمـــا يلقـــاه أو فـــرق
يغـــص بريقـــه منـــه كمـــا في النطـــق أو شـــرق
وقـــد صفـــرت أكفّهـــم فـــلا ورق ولا ورق
ولطـــف اللـــه مرتقـــب بـــه بـــه العـــادات تنخـــرق

ويوصي والد ابن شباط ابنه بقوله :

إذا أضمأتك أكفّ اللئام به كفتك شبعا وريّا
فكن رجـلا رجلـه في الثـرى وهامـة همتـه فـي الثريـا

4) وردت هذه الأبيات في نفح الطيب ج 5 ـ ص 250 ـ 201

ونلاحظ ان بن عرفة نفسه كان في شبابه ميالا للأدب، يقطف من جناه ما طاب، ولم يتخلّ عن نظم الشعر وهو في الثمانين من عمره وأكثر. وقد عثرنا في كنش بدار الكتب الوطنية عن نوع من الانتاج الغزلي كان يتسلى برصفه متغزلا يقول : (5)

خشيت على حبيب القلب لما أتى حمّامه وقضى الجنابا
نهار وجهه، والجسم زبد إذا طلع النهار عليه ذابا

إلا ان ابن عرفة آثر الفقه يضع حدوده، ويبيّن مسائله، ويخطط طرقه على مغازلة عروس الشعر، والطرب بانغامه وتفعيلاته وأعاريضه. إلا أنه رغم سيطرة الفقه وأصوله على الحياة الفكرية والعلمية فقد ازدهرت صناعة الكتابة في ديوان الانشاء أيما ازدهار وقد تولى شأنها جماعة من أسرة التجاني، وكان انطلاق عبد الرحمان بن خلدون في حياته السياسية ومغامراته المختلفة وانتاجه العلمي منذ عين كاتبا لأبي اسحق ابراهيم بن أبي يحيى أبي بكر، وخطة الكتابة كانت تسمى "العلامة" وقد قسمت في الأول إلى علامة كبرى في المسائل العظيمة وعلامة صغرى في المواضع التي لا يصحّح فيها السلطان مباشرة، ثم وحدت العلامتان وكان صاحبها يكتب في كافة الشؤون ويتولى النظر فيها. وقد التجأ عدد من

5) من كتاب رقم 18768 بدار الكتب الوطنية

ألمع الأدباء في هذا الجو المشجّع على الفقه إلى الهجرة إلى المشرق، ونكتفي بذكر واحد منهم تحصل على صيت عريض في مصر هو محمد بن محمد التونسي المعروف بابن القوبع (ت 738 هـ)، كان هذا الأديب عالما طبيبا شاعرا فحلا، لا تذكره المصادر إلا بالتعظيم والاجلال. يقول عنه احمد بابا في "نيل الابتهاج" (6) « كان يتوقد ذكاء ومهر في فنون حتى إذا تحدث في شيء من العلوم تكلم في دقائقه وغوامضه حتى يقول القائل انه أفنى عمره في ذلك، وكان التقى السبكي يقول هذا عنه : ما أعرف أحدا مثله ».

ومن أعماله ديوان شعر فقد جله، وشرح لديوان المتنبى، ومن شعره قصيدة عصماء وردت باختلاف كثير في "درة الحجال" لابن القاضي (ج 2 ترجمة عدد 847) والوافي للصفدي (ج 1، ص 238 ـ 245) منها :

جوى يتلظى في الفؤاد استعاره
ودمع هتون لا يكف انهماره

يحاول هذا برد ذاك بصوبه
وليس بماء العين تطفأ ناره

ولوعا بمن حاز الجمال بأسره
فحاز الفؤاد المستهام إساره

---

6) ص 232 ـ 233 عن دار الكتاب العلمية بيروت.

كلفت به بدري ما فوق طوقه

ودعصي ما يثنى عليه ازاره

غزال له صدري كناس ومرتع

ومن حبّ قلبي شيحه وعراره

جرى سابحا ماء الشباب بروضه

فأزهـر فيـه ورده ونضـاره

يشبّ غراما في حشاي نعيمـه

فيبدو بأنفاسي الصّعاد شراره

وينشـر دمعي منه نظم مؤشـــر

كنور الأقاحي حفّه جلّناره

ويسهر أجفاني بوسنـان أدعـج

يحيّر فكري عنجه واحوراره

حكاني ضعيفا أو حكى منه مورنقا

وخصرا نحيلا عال صبري اختصاره

معنّى بردف لا ينوء بثقلـه

فيا شدّ ما يلقى من الجار جاره

على أنه مثر وذلـك معســـر

ومن يجتنى اعساره وايساره

تألف مع هذا وذا غصـن بانـة

فوافـت به أزهاره وثمـاره

تجمّع فيه كل حسـن مفـرّق

فصار له قطبا عليه مداره

زلال ولكن أين منـــي وروده

ولدن ولكن أين مني اهتصاره

وسلسـال راح صدّ عني كأسـه

وغودر عندي سكره وخماره

وبدر تمام مشـرق الوجه بــاهر

لأفقي منه محوه وسراره

دنا ونـأى فالدار غيـر بعيـــده

ولكن بعدا صدّه ونفاره

حكت ليلتي من فقدي النوم يومها

كما قد حكى ليلا ظلاما نهاره

كتمت الهوى لكن بدمعي وزفرتي

وسقمي تساوى سره وجهاره

توالت سجلاّت علـي بأنّنـــي

إمام غرام طال فيك استتاره

ونضيف إلى ابن القـوبع عالمين أدبين آخرين هاجرا من تونس إلى المشرق وهما الاخوان برهان الدين الصفاقسي (ت 742) وأخوه شمس الدين (744)، اختار الأول النزوح إلى مصر والثاني إلى بلاد الشام، وقد ألفا العديد من الكتب

خاصــة كتــاب برهــان الدين الموسوم "المجيد في اعراب القرآن المجيد" وهو في النحو في أربعة مجلدات، وقدر راج هذا الكتاب رواجا كبيرا ومنه نسخ مخطوطة بتونس وبأماكن عديدة بالعالم (7) أما الثاني فكان ماهرا في علم الخليل بن أحمد وخلف كتابا في ذلك.

ونلاحظ ان ابن راشد لم يذكر لنا مشائخه بتونس ونرجح أنــه أخــذ عن هؤلاء وعن الأنــدلسيين الشعــراء واللغــويين والنحاة المقيمين بتونس. ونذكر أن النحو كان من اهتمامات ابن راشــد وألف فيه تأليفا هو ضائع اليوم، لنا عنوانه وهو "الموهبة السنية في علم العربية"، فلا شك انه جلس إلى ابن عصفور المتوفى سنة 669 في آخر أيامه وتردد إلى مجالس خلفاء ابن عصفور وقد خلف بتونس مدرسة نحوية كاملة، ترتكــز على اســاطين في علم النحو في كافة أرجاء افريقية، يخبرنا الغبريني عن بعضهم في "عنوان الدراية" والسيوطي في "بغية الوعاة" نذكر منهم أبا الحسن علي الرماني التونسي وأبا زكــرياء اليفــرني وأبــا علي الـطبـلي فإنهم كانــوا يدرســون "الــمقــرب" و"الممتــع" لابن عصفــور و"الجمــل" للزجاجي، ولا شك أيضا أنه اختلف إلى مجالس اللبلي ومن تآليفه الباقية والتي انشاها بتونس "تحفة المجد الصريح في

---

7) انظر ترجمته في اطروحتنا، الباب الأول.

شرح كتـاب الفصيح "يعلمنا ابن رشيد.في رحلته انه ألفه بافريقية، و"كتاب بغية الآمال في النطاق بجميع مستقبلات الأفعال" المنشور بتونس سنة 1972 ولا ندري لماذا لم يذكر ابن راشـد اسماء أساتذته بتونس بينما فصل القول في أخذه بالاسكنـدرية والقـاهـرة، واكتفى بقـوله مجملا عن شيوخه التونسيين قال : "قرأت العربية والفرائض والحساب وأدركت بتونس جلة من النبلاء وصدروا من النحاة والأدباء فاخذت عنهم ثم تشـاغلت بالأصـول والفقـه زمـانـا ثم رحلت إلى الاسكندرية في زمن الملك السعيد فلقيت بها صدورا أكابر وبحورا زواخر"(8) ثم أخذ يعددهم وذكر منهم ابن المنير وابن التنسي وابن الابياري وابن العـلاق والحافي رأسه، ثم ذكر شيوخه بالقاهرة منهم شهاب الدين القرافي وتقي الدين بن دقيق العيد والشمس الدين الاصبهاني وشرف الدين الكركي ويذكر ما أخذه عنهم من كتب بينما صمت عما أخذه بتونس.

ونتساءل لماذا آثر ابن راشد الرحلة إلى مصر والابتعاد عن تونس وكانت في شبابه مركزا للآداب والفكر والنحو والبلاغة، اليس لأنه أراد أن يضاهي أبا القاسم بن زيتون الذي ذهب الى القـاهرة ورجع وقد نال المجد العلمي والسياسي واعتبر

---

8)نيل الابتهاج : ص 235 (حاشية الديباج).

"قطب الأصول وفروعها والمرجوع اليه في أحكامها، غير مدافع ولا منازع" (9).

ولشد ما مّجده ابن خلدون في مقدمته، الا أن ابن راشد حينما رجع إلى وطنه وجد عراقيل كثيرة، واعداء عديدين حتى في مسقط رأسه، ومنهم من هدّده بالسجن وحتى القتل وهو ابراهيم بن عبد الرفيع الذي منعه من التدريس بجامعه وخوّفه بتكسير رجليه "وبالغ في التنكيل به واضطهاده حتى عزل من منصبه" (10)

وقد تمكن ابراهيم بن عبد الرفيع من أن يجور ويطغى في فترة تولى فيها الحكم عدد كثير من السلاطين الضعاف لم يحكموا طويلا واستطاع أن يؤثر في نفوس عدد منهم، وتميزت هذه الفترة بالانقلابات والثورات والاغتيالات السياسية، كما عرفت هذه الفترة غزوتين من سلاطين بني مرين، وهي فترة حالكة سياسيا اتصفت بعدم الاستقرار، وقد استطاع ابن راشد أن يؤلف العديد من الكتب رغم الكيد الذى كان متربّصا بجاهبذة الفكر وأن ينتقد خصومه ويشير الى الجو الخانق الذى كان يعيشه.

---

9) نيل الابتهاج : ص 222.

10) انظر اطروحتنا : ترجمة ابن راشد.

ويمكن أن نصف العلامات المميزة للحياة الثقافية في هذا العصر بالظواهر التالية :

1) كثرة الأدباء والعلماء والمؤلفين، وقد أحصينا منهم الكثير في القسم الأول من اطروحتنا مع دليل ببليوغرافي .

2) كثرة التآليف الأدبية والنحوية والصرفية والبلاغية والنقدية بالإضافة إلى دواوين الشعراء. ولنا عناوين كثيرة لكتب ألفت بافريقية في عهد ابن راشد، كتب كانت رائجة، أما الشعر فلم ينشر منه بتونس الا ديوانا ابن الابار وحازم القرطاجي (وقد نشر مرتين). بتحقيقين مختلفين أما دواوين الشعراء الأخرين فغير معروفة، وأشعارهم متفرقة في كثير من المظان، قد حاولنا جمعها، ولنا مجموعات مهمة لشعراء كثيرين مثل أبي زكرياء الحفصي وابن أبي تميم الحامي (ت 684) وابن حبيش واحمد الغساني .

3) كثرة المجالس الأدبية والعلمية بتونس وافريقية، وكانت تعجّ بالعديد من الأدباء والعلماء، كان يختلف إليها الطلاب ورجال العلم خاصة من الواردين من المغرب أو المشرق. وكانت هذه المجالس متعة أدبية وعلمية لروادها إذ كانت تنشد فيها الأشعار مرتجلة، وكانت المجال الفسيح للمناقشات الرفيعة، وتبادل المعارف اللغوية والأدبية، وكانت مسرحا للنكت اللغوية والنحوية والصرفية، وكان أصحابها

من أبرز علماء تونس يعقدونها في بيوتهم مما أخبرنا عنه بعض الرحالين المغاربة والأندلسيين في رحلاتهم إلى تونس، وكان يجمع بين المترددين إلى هذه المجالس التعلّق بالأدب وحب اللغة والشعر والأجواء العلمية الأدبية العالية.

4) استئثار الأدب واللغة وعلومها من بلاغة ونحو وصرف وعروض بالنصيب الأوفر في الدروس خاصة بالمدارس التي أنشأها بنو حفص في العاصمة ووزراؤهم. فقد كان تدريس الأدب محتشما في مقصورة الإمام بجامع الزيتونة، وكان قد أثار تدريس مقامات الحريري قضية كبرى في وسط العلماء وكان العلماء يستنكفون من روايتها برحاب الجامع، ومنهم من اجازها رغم ما فيها من مثالب ووصف لأعمال بطلها في التحيل والخداع.

قال البلوي عن أبي محمد عبد الله بن عبد البر (ت 737) : "كان يدرس بمنزله وبدويرة جامع الزيتونة وكان يروي فيها الكتب الأدبية خاصة مقامات الحريري استنكافا من تدريسها بالجامع الأعظم"، (11)، وقد وجد الأدب في المدارس فسحة ليدرّس خاصة تلك الكتب التي ذكرها ابن خلدون والتي قال عنها في المقدّمة :

---

11) تاج المفرق ج 2 ص 101 ـ 105.

وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذ الفن وأركانه أربعة دواوين وهي : "أدب الكاتب" لابن قتيبة وكتاب "الكامل" للمبرد وكتاب "البيان والتبيين "للجاحظ وكتاب "النوادر" لأبي علي القالي البغدادي" (12)

5) مساهمة الخلفاء الحفصيين أنفسهم في اثراء الحياة الثقافية بعاصمتهم انتاجا وحثا على الانتاج باغداقهم المنح وجلبهم الشعراء والأدباء وتأسيسهم المكتبات ، وانتدابهم للكتابة في ديوان الانشاء.

6) اشتهار عائلات بالبراعة في علم الأدب والشعر والكتابة مثل عائلتي ابن خلدون والتجاني. وكان على بن ابراهيم التجاني يردد "أنا الثاني عشر مدرسا من آبائي على نسق كلهم قد قعد هنا (جامع الزيتونة) للاقراء"، وقد لاحظ العبدري في رحلته (ص 257) ان بيت التجاني شهير بالعلم "وقلّ منهم ومن نسائهم من لا يقول الشعر. وأما أبو الحسن فهو فيه آية الزمان اجادة معنى وتنقيح لفظ ، وسرعة بديهة ، وكثيرا ما يمليه ارتجالا فيجوّد ويتقن وكانت هي التي علمته النحو والأدب وكانت شاعرة ماهرة" (13) ، ومن

---

12) وقد حاولنا في اطروحتنا ضبط الأعمال الأدبية التي كانت تدرّس بتونس في العهد الحفصي.

13) سبك المقال ص 114 ـ 117 .

شعرها ملغزة في تميم وهو اسم حبيبها.

يقولون لي : هذا حبيبك ما اسمه ؟
فما اسطعت افشاء وما اسطعت أكتم

قلت لهم : كفّوا الملام، فانما
أوائله ميم وحرف مقدّم

وهي تبدو فيما بقي من شعرها "شاعرة صاحبة قريحة وقادة مطبوعة على قول الشعر عفو الخاطر، تبث قصائدها الرقيقة غزلها بحبيبها وحرمانها منه وتعبّر فيها عن لواعج نفسها وبواطن حالها" (14).

وأخيرا فان تونس كانت في عهد محمد بن راشد القفصي مركزا لحركة أدبية نشيطة وقد اقترنت ولادة هذه الحركة بولادة الدولة الحفصية نفسها على يدي أبي زكرياء الحفصي، وتميز عهده وعهد خليفته المستنصر بتألق الحياة الأدبية وبروز أدب زاهر كان أصحابه من الأدباء الفطاحل والشعراء الفحول، وان الأسماء التي ذكرت في أول هذه البحث يمكن اعتبارها علامات مضيئة تشير إلى ازدهار الآداب مما جعل تونس عاصمة متألقة تشد إليها ركاب الرحالين من كل مكان وتهفو إليها النفوس وتطمح إلى العيش فيها الأفئدة.

---

14) انظر ترجمتها في الأطروحة، الباب الأول

فشل الحملة الصليبية الثامنة على تونس

قلما تناولت الدّراسات المتعلقة بالحروب الصليبية الحرب الصلسبة الثـامنة التي كان مسرحها شواطىء قرطاج وكانت ترمي إلى احتلال تونس العاصمة الحفصية وكان يقودها لويز النـاسـع المشهـور بالقديس لويز ومنيت بالفشل الذريع لما وحدته من مقاومة شعبية عنيفة مستمرة وللحصار المضروب حول الصليبيين حتى أصيبـوا بالمجـاعة والعطش والأوبئة. وننتهي حل المـراجـع العـربية الخـاصـة بالحروب الصليبية بالغزوة الصليبية السابعة على مصر والتي قادها نفس الملك لويز التاسع فمني أيضا بشر هزيمة إذ اعتقل وافتدى نفسه ونفوس من معه بغرامة مالية فادحة وسلم دمباط بلا قيد ولا نسرط وذلك سنة 1250 .

وقـاوم المسلمـون سواء في الحملة الصليبية السابعة على مصر أو الثـامنـة على تونس مقـاومـة شديدة رائعة كتبوا بها صفحات ناصعة مجيدة في تاريخ مصر وتونس في العصر الوسيط.

---

* بحث أعـد لمجلة "المـورد" العـراقية، ونشر بالعـدد الخاص بالحروب الصليبية. المجلد السادس عشر، عدد 4. 1408 هـ ـ 1987 م.

وتحتل الحملة الصليبية الثامنة على تونس مكانة مهمة في تاريخ الحروب الصليبية إذ أنها كانت الأخيرة المرقمة، تلقى فيها الصليبيون درسا لا ينسى إذ فقدوا فيها ملكهم وأعيانا كثيرين منهم ومنوا بأقسى العذاب تصفه لنا بعض المصادر الغربية خاصة كتاب "تاريخ القديس لويز ملك فرنسا" بقلم دو بوري (1).

أما المصادر العربية القديمة فلم يبق لنا كتاب مما ألفه المؤرخون التونسيون في القديم عن وقائع هذه الحملة من ذلك كتاب ابن قنفذ وعنوانه "المتوكلي" (2) وهو كتاب كبير، وكتاب الأديب جمعة الذي استقى منه أبو عبد الله محمد الأبي (ت 828) بعض الأخبار في كتابه "اكمال إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم" (3). ونجد من المؤرخين القدامى من أرخ لها أمثال ابن خلدون في تاريخه (4) وابن الشماع في "الأدلة البينة النورانية عن مفاخر الدولة الحفصية" (5) وابن

---

1) De Bury, Histoire de Saint Louis Roi de France, Tours, 1898

2) الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية لابن قنفد تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس 1968، ص 132

3) طبع بمصر في سبعة أجزاء سنة 1328، انظر ج 5، ص 264.

4) ج 6، ص 290 ـ 295، ط. بولاق.

5) تحقيق عثمان الكعاك، مطبعة العرب، تونس 1936، ص 65 ـ 68.

قنفذ في "الفارسية" (6). أما المتأخرون فنذكر ابن أبي دينار في "المؤنس في أخبار افريقية وتونس" (7) واحمد بن أبي الضياف في الجزء الأول من كتابه "اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان " (8) والباجي المسعودي في " الخلاصة النقية في أمراء افريقية" (9) وحسن حسني عبد الوهاب في "خلاصة تاريخ تونس" (10). فهم قد لخصوا في سطور قليلة أخبار هذ الحملة معتمدين على المؤرخين السابقين، ولم يضيفوا شيئا جديدا. أما المعاصرون فنذكر منهم الأستاذ روبا برنشفيغ في اطروحته عن بلاد البربر في العهد الحفصي (11) فقد استعرض أهم أحداث هذه الحملة الصليبية معتمدا على بعض الوثائق الغربية. ونذكر من التونسيين محمد العروسي المطوي الذي خص هذه الحملة بفصل في كتابه عن الحروب الصليبية (12) ثم بفصل آخر في

---

6) ص 131 ـ 132 .

7) ط تونس 1350 ، ص 121 ـ 122 .

8) تونس 1963 ، ص 162 .

9) تونس 1283 ، ص 62 ـ 63

10) الدار التونسية للنشر د. ت ص 130 ـ 131

11) Robert Brunschvig, La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du xve siècle, 2 t. Paris, 1982

12) الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الكتب الشرقية، تونس 1954، ص 96 ـ 107

كتابه المنشور حديثا عن "السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب العربي" [13].

دام الاعداد للحرب الصليبية الثامنة سنوات قبل أن يغادر الملك لويز التاسع أرض فرنسا، فقد راسل البابا كليمون الرابع ملوك انكلترا واسبانيا وبولونيا وألمانيا والقسطنطينية وأرمينيا يعلمهم بهذه الحملة ويحثهم على المشاركة فيها، وخصص عشر مداخيل الكنيسة لمدى أربع سنوات لتجهيز هذه الحرب، وفرض آداءات مختلفة على أعيان المدن والقرى لنفس هذا الغرض. وابتدأت التحضيرات الفعلية أوائل سنة 1270، ولم تغادر السفن المقلة للجنود مرفأ "ايق مورت" Aigues-Mortes، وهو يبعد حوالي 700 كلم جنوبي باريس، الا في 4 جويلية 1270، من نفس المكان وبعين الطريقة التي غادرت بها السفن هذه البلدة في الحرب الصليبية السابقة للتوجه صوب مصر، إلا أن البابا كليمون الرابع لم يشهد انطلاق الاسطول القاصد تونس إذ توفي قبل سنتين في نوفمبر 1268، وشغر بعده منصب البابا حوالي ثلاث سنوات إلى أن انتخب "فريقوار العاشر" مكانه سنة 1271 بعد فشل الحملة على تونس.

---

13) دار الغرب الاسلامي، بيروت 1986، وقد نشر هذا الفصل سابقا في مجلة "الحياة الثقافية"، عدد 15 ـ 16، لسنة 1981. وذيل هذا الفصل باتفاقية الصلح بين المستنصر والصليبيين ولم يعد نشرها في الكتاب.

وقد تجمع الصليبيون في مرفأ "ايق مورت"، محدثين اضطرابات، جاؤوا إليه من كل فج عميق خاصة من فرنسا وكاتالانيا، وكان من المنتظر أن تفد عليهم مراكب من جنوة تحملهم إلى المشرق فتأخرت عنهم طويلا، وقد مات من الخصومات والمعارك بين هذا الخليط الغريب من الأجناس أكثر من مائة شخص (14)، أما عدد المشاركين في هذه الحملة فيقدر بحوالي أربعين ألف صليبي، يذكر ابن خلدون أنهم زهاء ثلاثين ألفا من الرجالة وستة آلاف فارس موزعين في ثلاثمائة أسطول بين كبار وصغار، تحت امرة سبعة يعاسيب

وتهول المصادر التونسية خبر عدد أفراد هذه الحملة، يقول صاحب "الفارسية" : "وكانت في أيام المستنصر حوادث عظام منها في سنة 668 نزول النصارى بتونس بسبعة من الملوك وبكثرة من العدد والعدد والخيل والأخبية وذلك في صلاة الظهر من يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة" (16). وقال صاحب "الأدلة البينة" : وكان نزوله على تونس في يوم الخميس السادس والعشرين لذي قعدة سنة

---

(14) De Bury, Histoire de Saint Louis, p 123

(15) اس خلدون · تاريح · ج 6، ص 292، يورد هذه الأحبار عن أبيه واليعسوب : هو رئيس القوم وكبيرهم.

(16) الفارسية : ص 131.

ثمان وستين وستمائة بجموع وافرة فرسانا ورجالا ورماة ومددهم متصل كل يوم بالرجال والأقوات والعدة (17)

أما المشاركون فيها فهم بالاضافة إلى لويز التاسع أبناؤه الثلاثة فيليب وبيار وجان تريستان، وأخوه ألفونس كونت دي بواتيي وتولوز، وابنته ايزابلا وصهره تيبو ملك نافار وكونت دي شمبانيا والكردينال سفير البابا رودولف البانو، وعدد من كونتات بريطانيا والأو وفلاندر واللوكسمبور (18). وعدد من النبلاء الفرنسيين ورجال الكنيسة. ولم تصحبهم زوجة لويز التاسع على عكس ما ذهب إليه ابن خلدون (19). ولم يكن المشاركون يعلمون أن البلد المقصود هو تونس إذ كانوا يعتقدون أن وجهتهم ليست سوى فلسطين أو مصر لإعادة الكرة عليها.

وقبل أن يصل الأسطول إلى كاقلياري بجزيرة ساردانيا تعرض إلى عاصفتين كادتا تؤديان بمعظم السفن. وفي يومي 12 و13 جويلية 1270 عقد لويز التاسع مجلسا في مركبه وعرض على أهم رفقائه قصده وهو التوجه أولا إلى تونس

---

(17) الأدلة البينة : ص 67.

(18) R Brunschvig, la Berbérie Orientale sous les Hafsides, T.1, P.55

(19) التاريخ . ج 6، ص 293، وانظر De Bury, Histoire de Saint Louis

وطلب موآفقتهم فاندهشوا لذلك (20) ولم يوافق الكثير منهم (21) وعـارضـوه معـارضة شديدة إلا أنهم في النهاية اقتنعوا بأفكاره، وأقلعت السفن قاصدة تونس ووصلت إلى قرطاج بعـد ستة أيام في 17 جويلية 1270 . فما الذي أسره لويز التاسع إلى رفقائه وبماذا أقنعهم للتوجه صوب تونس ؟

احتلف المؤرخـون لهذه الغـزوة حول سبب تغيير الملك الفرنسي وجهته من فلسطين أو مصر إلى تونس. ولكن يبدو أن السبب الجلي أن لويز التاسع كان يروم القضاء على أزهر مدينة اسلامية في تلك الفترة، صارت عاصمة لخلافة جديدة هي الخلافة الحفصية، وتحولت الأنظار إليها بعد سقوط بغداد في أيدي التتر سنة 656 وانقراض دولة بني العباس بقتل الخليفـة العبـاسي وتـولية أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي الحكم بتونس وعمره لا يتجاوز 22 سنة وتسميته بأمير المؤمنين اثر قدوم البيعة بذلك من مكة وتلقبه بالمستنصر بالله عندما وصلته بيعات الشام والأندلس (22). كان لويز التـاسـع يرمي إلى مهـاجمـة المسلمين في مركز قوتهم وقلب

---

20) De Bury, Histoire de Saint Louis, p. 125.

21) R Brunschvig, la Berbérie Orientale sous les Hafsides, T 1, P 61

22) تاريخ ابن خلدون ح 6، ص 280 وما بعدها

عظمتهم مثلما فعل في غزوته السابقة (23) كانت تونس قد وصلت إلى أوجها الحضاري فازدهر العمران بها وحفل بالقصور والمدارس والجوامع ونضدت البساتين حول العاصمة تغني بها النواعير وتألقت الحياة الفكرية والأدبية خاصة بمن أقام فيها من الشعراء والأدباء الأعلام الأندلسيين والمغاربة منهم محمد بن الأبار وأبو بكر بن سيد الناس وأحمد بن الغماز وعلي بن عصفور ومحمد بن أبي الحسين وعلي بن سعيد الأندلسي وأبو جعفر اللبلي وأبو المطرف بن عميرة وأبو الحجاج البياسي (24).

وكان المستنصر نفسه شخصية لامعة، أحاط نفسه بالعلماء والأدباء والشعراء من أفارقة وأندلسيين ومغاربة، وكان يقرض الشعر، وقد وصف ابن خلدون عهده والتألق الحضاري فيه وما أنشأه من رياض وقصور في فصل أدبي شيّق في تاريخه (25)، قال : "وكثر ترف ساكنها وتأنق الناس في الملابس

---

23) René Grousset, l'Epopée des Groisades, Plon ed., 1939, p. 349.

24) انظر أطروحتنا عن الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي (تحت الطبع) ، وقد عرفنا بهؤلاء وبغيرهم وبينا دورهم في الحياة الأدبية بتونس أوائل العهد الحفصي.

25) ج 6، ص 281 ـ 282

والمـراكب والمبـاني والمـاعـون والأبنية فاستجادوها وتناغوا في اتخـاذهـا وانتقـائهـا إلى أن بلغت غايتها" ويختم فصله عن المستنصر بقــولـه : "كـان شأن هذا المستنصر في ملوك آل حفص عظيما وشهـرتـه طائلة الذكر بها انفسح أمد سلطانه ومدت إليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصا الأنـدلس من شاعـر مفلق وكاتب بليغ وعلم نحرير وملك أروع وشجاع أهيش متفيئين ظل ملكه . . ." (26).

وكان للمستنصر علاقات مع ملوك النصارى لاسيما لويز التاسع نفسه، وقد وصف برنشفيغ في أطروحته مدى تطور العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين تونس والنرفاج وأراقون وبيزا وصقلية (27). ويلاحظ برنشفيغ أن المستنصر قد أرسل رسلا إلى باريس في أكتور 1269 لمعالجة بعض المسائل المالية كانت بين بعض التونسيين وبين تجار افرنج (28). ويذهب ابن خلدون أن من أسباب هذه الحملة الصليبية على تونس أن بعض التجار الافرنج ادعوا "أنهم أقرضوا اللّياني فلما نكبه

26) نفسه : ص 296

R Brunschvig, la Berberie Orientale, t 1, p. 50-55. (27

28) نفسه . ص 56.

السلطاني طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلاثمائة دينار بغير موجب يستندون إليه فغضبوا لذلك واشتكوا إلى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو تونس (. . .) فارسل إلى ملوك النصارى يستنفرهم إلى غزوها" (29).

إلا أن هذا السبب يبدو مستبعدا لعدم ذكره في الاتفاقية التي تمت بين المستنصر والصليبيين.

وقد لاحظ أحد المؤرخين الفرنسيين للحروب الصليبية أن لويز التاسع قد ارتكب خطأ تاريخيا فادحا بهجومه على تونس وبمحاربته ملكا لامعا نابغا ومتفتحا (30)، كانت تصله به علاقات طيبة ولاسيما أنه كان يقيم بتونس كثير من النصارى وعدد من الأمراء المسيحيين (31)، وكانت تونس مركزا تجاريا مهما مفتوحا لكل الأديان في حوض البحر الأبيض المتوسط (32) خاصة وأنها مدينة جد محصنة ومنيعة (33) ولعل تأثير شخصيتين في نفس لويز التاسع كان عاملا قويا وحاسما في

---

29) تاريخ ابن خلدون : ج 6، ص 291.

30) René Grousser, Histoire des Groisades et du Royaume franc de Jérusalem, Paris, 1936, t 3, p 651

31) منهم أخو ملك اشبيلية الذي أكرمه المستنصر وبذل له الأموال انظر : الفارسية : ص 123 وأميران صقليان انظر اسفله ملاحظة عدد 45.

32) De Bury, Histoire de Saint Louis, p 126

33) نفسه

اتخـــاذه قرار تحويل الـــوجهـــة من المشرق إلى تونس. أمـا الشخصية الأولى فهي الراهب رايمون مارتين أستاذ العربية والعبرية في الدير الدومينيكي بتونس، وكان مرتبطا بعلاقة مع المستنصر، ويبدو أنه هو الذي أوحى لقائد الحملة الصليبية على تونس أن السلطان الحفصي مستعـد للتنصر (34) وأنـه يمـيل إلى دين المسيح. ويرى المؤرخ بريهيي أن سبب هذه الحملة على تونس كان نتيجة لنشاط المبشرين بعد أن أقيم بالـعـــاصمـــة الحفصية دير للدومينيكيين وانتصب فيه هذا الراهب مدرسا وواعظا (35). فذهـب في ذهن لويز التاسع ان المستنصر ينتظر الفرصة للاعلان عن دينه الجديد وسيكون هو كفيله (36)، إلا أن قائـد الحملة قد ارتـطمت نفسه على صخـرة الحقيقة على شاطئ قرطاج وأدرك أنه ذهب ضحية لأوهامه وخيالاته حين رأى بأم عينيه مدى استنفار المستنصر للجيوش وتنظيمه المقاومة الرسمية والشعبية ونضاله المستميت ضد الغزاة. كما أن سيرة المستنصر بالله لا تدل على أي تهاون بالدين وهو الخليفة الجديد للمسلمين وكان أملا للموحدين ببـلاد المغـرب يتغنى الشعراء من مادحيه بأنه حامي ساحة

---

(34) De Bury, Histoire de Saint Louis, p 126

(35) Louis Bréhier, les Croisades, Paris 1928, p. 214.

(36) De Bury, Histoire de Saint Louis, p. 126

الاسلام وناصره على الأعداء (37). فلعل هذا السبب اختلقه الملك لويز التاسع نفسه حيلة منه لاقناع مشاركيه للتوجه نحو تونس ربوءا بنفسه من النزول ثانية بمصر بعد انهزامه هناك وأسره ووضع القيود في يديه ورجليه، ومازالت الذكريات الأليمة تحز في نفسه ولا ينسى ما قاساه من فظاظة الطواشي صبيح في دار القاضي فخر الدين بن لقمان حتى إنه قال للأمير حسام الدين بن أبي علي نائب السلطنة : "سألتك بدينك ألا ما قتلتموني ورحمتموني من حس هذا الخادم ونظره فانه أصعب علي من كل ما أنا فيه" (38).

وقد هدّده أمير مصر حينما علم أن الحملة الثامنة ستقصد مصر فأرسل له رسولا ينشد بين يديه قصيدة للصاحب بن مطروح يحيى بن عيسى جمال الدين (592 ـ 649 هـ / 1196 ـ 1251 م) (39) يحذره من الرجوع إلى مصر

---

37) انظر خاصة ديوان ابن الأبار، الدار التونسية للنشر، تونس 1980، وديوان حازم القرطاجني، تحقيق عثمان الكعاك، بيروت 1964، فهما يعجان بمدائح المستنصر.

38) انظر فصل لويز التاسع أسير المنصورة للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، مجلة "العربي" العدد 340، مارس 1987، ص 60.

39) شاعر مصري ولد بأسيوط وتوفي بالقاهرة خدم الملك الصالح أيوب، كان ناظرا على الخزانة بمصر ثم نقل إلى دمشق وعاد إلى مصر بعد وفاة الملك الصالح وله ديوان شعر، (الاعلام للزركلي ج 8، ص 162).

ويلوح له أن دار ابن لقمان على حالها وأن صبيح سيحرسه من جديد. ولا ندري في أي مكان استقبل لويز التاسع السفير المصري، هل في قاقــلياري أم في تونس (40) الا أن هذه القصيدة قد راجت في تونس واتخذها المجاهدون التونسيون نشيدهم الحماسي مع بيتين للشاعر التونسي أحمد بن اسماعيل الزيات علق بهما على قصيدة ابن مطروح (41). والقصيدة هي :

قــل للفرنسيــس إذا جئتــه مقال نصح من قؤول فصيح

آجرك الله على مـا جـرى من قتل عبّاد يسوع المسيح

أتيت مصرا تبتغي ملكهـــا تحسب أن الزمر بالطبل ريح

فساقـك الحي إلـى أدهـم ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكــل أصحابـك أودعتهـــم بسوء تدبيرك بطن الضريح

سبعون ألفـــا لا يـرى منهـم إلا قتيل أو أسير جريح

الهمـك اللـه إلى مثلهـــا لعل عيسى منكم يستريح

---

40) ابن خلدون : التاريخ : ج 6، ص 291، ولعل اللقاء كان بتوس كما يفهم من هذا المصدر.

41) القصيدة في "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي، ج 1، ص 364، طبعة مصر، وفي تاريخ ابن خلدون باختلاف، ح 6، ص 292، وفي "الأدلة البينة" ص 66

ان يكن البابا بذا راضيــا ربّ غش قد أتى من نصيح

فاتخــذوه كاهنــا انــه أنصح من شق لكم أو سطيح

وقل لهــم ان أزمعـوا عــودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح

دار ابن لقمـان على حالهـا والقيد باق والطواشي صبيح

أما بيتا الشاعر التونسي فهما :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبرا وطواشيك منكر ونكير (42)

ويميل صاحب "المؤنس" إلى نفس الرأي ، وهو أن لويز التاسع قد "ذلت نفسه على العودة الى مصر وأراد أن يأخذ ثأره من تونس فدمــره الله تعـالى" (43). ناهيك وأن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس حينما بلغه خبر غزو تونس كتب إلى المستنصر "بوصول العساكر إليه نجدة له على الفرنج وكتب إلى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجدته وأمرهم بحفر الآبار في الطرقات برسم العساكر وشرع في تجريد العساكر"

---

42) نفس المــرجــع الا أن ابن خلدون لم يذكــرهمـــا وذكــرهمـا صاحب المؤنس : ص 121 . يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في فصله المذكور أن دار ابن لقمان قائمة بالمصورة بجوار جامع سيدي عبد الله الموافي، وهي مشيدة باللبن وكان لويز التاسع مسجونا بالطابق الأرضي

43) ص 122 .

(44) الا أن موت لويز التاسع ورحيل الصليبيين عن قرطاج حال دون وصول النجدة المصريه إلى تونس.

أما الشخصية الثانية التي أثرت في اتخاذ قرار تحويل الوجهة إلى تونس فهو شارل دانجو ملك صقلية منذ سنة 1268 وأخو لويز التاسع، فقد شاهد هو نفسه الأسر بمصر مع أخيه وأراد أن ينتقم من المستنصر الذي لم يعترف به واحتفى بأعدائه وتدخل في شؤون صقلية الداخلية إذ استقبل منذ سنة 1260 أميرين مسيحيين هما هنري وفريدرك دي قشتيلية وساعدهما على تنظيم غزوة ضد صقلية في أوائل أوت 1267 (45)، وكادا ينتصران لولا أن تراجع الأمر أخيرا لفائدة شارل دانجو، فأسرع هذا بطلب أداء سنوي كان يدفعه قديما والد المستنصر أبو زكرياء الحفصي لحاكم صقلية فريدريك الثاني وتخلى المستنصر عن دفعه حينما ولي شارل دانجو (46). وهكذا اتصل بأخيه لويز التاسع وحرضه على الهجوم على تونس كي تدخل في حوزته، ووعده بأن يلتحق به بقرطاج في أسطول جرار. فيكون لشارل دانجو دور كبير في التأثير على أخيه لتحويل الأشرعة نحو تونس (47).

---

44) السلوك ج 1، ص 590

45) R. Brunschvig, la berbérie Orientale, T. 1, P.54

46) نفسه

47) عرف امبراطور صقلية السابق فريدريك الثاني من عائلة الهوهنشتوفن بحسن علاقاته بالمسلمين المقيمين بصقلية من بقايا عرب الفتح وتسامحه معهم ومحبته للثقافة الاسلامية، وحينما توفي لحقت مسلمي صقلية وجنوب ايطاليا اضطهادات ومعاملات سيئة. انظر محمد العروسي المطوي الحروب الصليبية ص 99.

الصليبيون بقرطاج

أ ـ استعداد المستنصر :

بلغ المستنصر بالله خبر الحملة الصليبية المتوجهة نحو تونس فأعد العدة للمواجهة الحاسمة، ولم تكن هذه غزوته الأولى بعد أن انتصب في الخلافة، فقد شن حروبا عديدة ولاقى ثورات كثيرة تغلب عليها ابتداء من ثورة عمه عليه سنة 648 ثم أخيه سنة 651 إلى ثورات قبائل عديدة عليه خاصة قبيلة رياح التي كان انتصاره عليها حدثا كبيرا هنأته به الشعراء (48). وحينما تأدّى إليه خبر الهجوم الصليبي المزمع بادر بتحصين عاصمته باصلاح الأسوار (49) ونادى بالاستعداد للعدو واستنفر الناس للجهاد كاتبا لهم قوله تعالى : "انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون"(50)، فاستجاب الناس حتى قال بعض المؤرخين "أنه اجتمع في تلك الحرب من الخلق ما لم يجتمع في حرب منذ خلق اللّه آدم عليه السلام"(51).

---

48) الفارسية : ص 117، 129 ـ 130.

49) Ch Andre Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Payot, Paris, 1931, p.422

50) الأبي . اكمال اكمال المعلم ج 5، ص 264، والآية عدد 41 من سورة التوبة

51) نفسه.

وعقد المستنصر مجلس الشوري، وهو يتكون من وجهاء الأنـدلسيين المهاجرين كالى تونس والموحدين أصيلي المغرب الأقصى، وعرض عليهم أن يدع الصليبيين ينزلون الى البر وهنالك تتم محاربتهم ومحاصرتهم وتضييق الخناق عليهم حتى ينهزموا أو يصدهم عن النزول بقرطاج حتّى تنفد ذخيرتهم من الزاد ويقلعون. وفي هذه الحال يخشى أن يولوا وجهتهم نحو احدى المدن الساحلية فيملكوها ويستبيحوها ويعسر ردهم عنهـا (52). وقـد استقر الرأي أن يتركوهم ينزلون فيطوقهم المسلمـون من جميع النـواحي. وقـد حاول الخليفةالحفصي المهادنة لكن لويز التاسع امتنع "وغلظ للرسول وعرفه أنه متـوجـه اليه" (53). ويعلمنا ابن خلدون أن المستنصر أوفد رسله الى لويز التاسع "لاختبار حاله ومشارطته على ما يكُف عزمـه وحملوا ثمانـين ألفا من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أن غزوه الى أرضهم، فلما طلبوا المال اعتل عليهم بأنه لم يباشر قبضه" (54). ولم يكن هذا المـوقف من المستنصر غريبا اذ جنح في الأول إلى عرض المسالمة لكنه حين جوبه بالرفض لم يجد بدا من المواجهة

---

52) ابن خلدون التاريخ . ح 6، ص 292

53) الأدلة البينة : ص 66.

54) ابن حلدون : التاريح ج 6، ص 291.

فبدأ بتنظيم جيشه وتعبئته. وكان هذا الجيش محل عناية خاصة، كان متنوعا، وافر العدد، عتيدا، قويا "ضرورة أنه كان مكلفا بالسهر على أمن الأمير ومنوط بعهدته السهر على أمن البلاد" (55). ويتكون من قسمين : "جند ملكي وهو حرس خاص بالأمير، يتركب من فرقة للفرسان عناصرها مسيحيون، ومن فرقة للمشاة تنوعت عناصرها وتغيرت فكانت من السود من سكان العاصمة ومن مهاجرين أندلسيين ومن أتراك وجميعهم مأجورون، وكانت لهم حظوة خاصة في البلاط ويرتدون زيا خاصا" (56)

وقد ذكر ابن الشماع هؤلاء الأتراك حينما أورد أن المستنصر أشار اليهم وكانوا بين يديه قائلا عن لويز التاسع : "هو الذي أسره هؤلاء فاطلقوه" (57). وذلك "احتقارا لأمره فبلغ الفرنسيس مقالته فحقدها عليه وحشد أهل ملته واستعان بملوكهم" (58) كما أن المقريزى أشار في "السلوك لمعرفة أحوال الملوك" إلى الافرنج الذين كان يستخدمهم المستنصر وعابه الظاهر بيبرس باستعمالهم (59)، ويذكر ابن الشماع أن

55) احمد بن عامر : الدولة الحفصية، دار الكتب الشرقية، تونس 1974، ص 37

56) نفسه ص 38 ـ 39.

57) الأدلة البينة : ص 60.

58) نفسه . ص 66.

59) ج ا، ص 601.

المستنصر كان يلازم بابه "ألف فارس من الشجعان يقفون عند باب غدر الى أن رحل النصارى عن تونس" (60).

أمـا القسم الثـاني من الجيش فهـو الجنـد النـظامي، "ويتـركب من مشـاة وفـرسـان، اطـاراتـه من الحفصيين الموحـدين، وعنـاصره من البربر، يجندون بواسطة قبائلهم مقابل اعفائها من بعض الضرائب أو بعنوان مساهمة مجانية في المحافظة على أمن البلاد أو مقابل أجور معينة أو بعنوان ولائها للدولة، ولم يكن عدده قارا، بل تغير حسب الظروف، وكثيرا ما انخـرط في سلكه متطوعون عندما يداهم البلاد خطر أجنبي، وكثيرا ما وقعت الاستعانة بالبدو الرحل عند الحاجة" (61).

وقد حلل الأستاذ برنشفيغ في الفصل التاسع من أطروحته نظام هذا الجيش وعنـاصره المختلفـة ونقـاط قوته وضعفه، وأنواع أسلحته، وطرق التحصين وكيفية قتاله (62). ونص أن التونسيين كانوا لا يجهلون المجانيق (63)، استعملوها خاصة في الهجوم، واستخدمت عند حصار المهدية سنة 602 هـ / 1205 م، لاعتصام أحد الثائرين بها، "إذ كانت كل واحدة

---

60) الأدلية البينة : ص 68.
61) احمد بن عامر : الدولة الحفصية، ص 39.
62) ج. 2، ص 75 ـ 98.
63) نفسه : ص 85

منها ترمي قذائف من الحجارة والكور الحديدية فتسقط وسط المدينة" (64). ولوحظ في الحرب الصليبية الثامنة استعمال المسلمين لآلات تقذف الرمال الرقيقة المحرقة في الوجوه فيقاسي منها الصليبيون الويلات الشديدة (65).

ب) - تنظيم المواجهة :

حينما استنفر المستنصر الناس ودعاهم إلى الجهاد اجتمع له منهم عدد عظيم، ووافته الأمداد من كل ناحية خاصة من الأندلسيين المهاجرين إلى تونس، وقد تسنى لهم أن يواصلوا جهادهم، وكان مكان تجمعهم رادس، الضاحية الجنوبية لتونس، وعددهم زهاء أربعة آلاف فارس وكان يقودهم محمد بن أبي الحسين الأندلسي رئيس الدولة (66) وكان أحد رجالات الدنيا دهاء ورأيا وذكاء ومعرفة حسب تعبير ابن قنفذ (67).

وعقد المستنصر لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتزقة والمتطوعة، مقابل السبعة جيوش الصليبية التي يقودها سبعة من ملوك النصارى حسب تصور المسلمين لجيش

---

64) الدولة الحفصية ص 38

De Bury, Histoire de Saint Louis, p 130. (65

66) عرفنا في الجزء الأول من أطروحتنا

67) الفارسية ص 132 ـ 133

العدو. وكانت لهؤلاء الموحدين قيادة ثنائية يقوم بها يحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر. (68). ويفيدنا ابن خلدون أن أبا هلال صاحب بجاية قد وصل إلى تونس كما وصلت الجموع من قبائل وسدويكش ووهاصة وهوارة وزناتة وبني توجين (69).

وقدم المتطوعون من داخل افريقية خاصة من القيروان ونواحيها وضربوا خيامهم بأريانة، وكانوا يهجمون كل يوم منها على قرطاج، يقودهم الصلحاء والفقهاء والمرابطون (70).

ولنا نص ثمين ورد في "معالم الايمان في معرفة أهل القيروان" لابن ناجي يرسم فيه صفحة من هذا الجهاد المثير (71). جاء في هذا النص: "لما نزل الافرانسي وشرون (72) لعنهما الله بتونس وذلك عام 668 بجيوش النصارى دمرهم الله وخاض حال الناس واشتد الأمر على المسلمين وفزع الناس من كل بلد توجه الشيخان المذكوران (أبو علي سالم القديدي وأبو علي عمار المعروفي) في جمع كثير من الناس فلمّا وصلوا إلى قرب تونس نزلوا بأريانة وضربوا خيامهم فكانوا

---

68) ابن خلدون: التاريخ، ج 1، ص 293

69) نفسه.

70) نفسه

71) ج 4، نسخة مخطوطة بمكتبتنا والكتاب مطبوع

72) يعني شارل دانجو.

يمشـون منهـا كل يوم للجهـاد إلى أن انقضت المقاتلة بين المسلمـين والنصـارى لصلح وقـع بينهم وبـين أمير المؤمنين المستنصر بالله ثم حدث بالشيخ أبي علي عمار مرض استرسال ببطنه فأقام الشيخ أبو علي سالم بسببه هناك أياما إلى أن مات فدفنه بها وقبره هناك معروف مشهور يزار ويتبرك به" .

وكـانت معنـويات المقاتلين المسلمين جد مرتفعة، كانوا موقنـين بالنصر والغلبـة، كانـوا يرددون أبيات ابن مطروح المصري وأحمـد الـزيات التـونسي، الا أن الجواسيس كانوا ينشرون دعايات مغرضة في صفوفهم منها أن السلطان يحدث نفسه بالانتقال إلى قسنطينة (73) أو إلى القيروان (74) .

ج ـ المعـارك

وصل الصليبيون إلى مياه قرطاج يوم 17 جويلية 1270، وحالما وصلوا أرسل لويز التاسع طلائعه في البر للاستكشاف فوجدوا المكان خاليا فأعلموا سلطانهم وأشاروا عليه بالنزول لكنـه خشي خدعـة حربية بالليل فجمـع المجلس الحـربي واستشار أعضاءه في النزول، واختلفت الآراء وأخيرا أجلوه

---

73) الفارسية : ص 132 .

74) ابن خلدون . التاريخ . ج. 6، ص 293

للصباح الغد حيث نزلوا بقرطاج ولم يجدوا أي مقاومة (75).
وقد انبهروا بسحر المكان، أودية وغابات وكل ما تصبو إليه النفوس مما يمتعها ويحقق رغباتها (76)، ولمحوا قصرا فخما سرعان ما احتلوه. لقد "أنزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنة، وكانت ماثلة الجدران، اضطرم المعسكر بداخلها ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونضبدوا شرفاتها وأداروا على السور حندقا بعيد المهوى وتحصنوا" (77). إلا أنهم لم يجدوا ماء وكادوا يموتون عطشا، ولمحوا آبارا من بعيد حاولوا احتلال مواقعها لكن رد المهاجمون عنها وقتلوا جميعا (78).

وأرسل الخليفة الحفصي إلى لويز التاسع رسولا يطلب منه الرحيل وإلا فإنه سيجر له جيشا يعد مائة ألف شخص (79)، لكن الصليبيين أصروا على الحرب، وسرعان ما أدركوا أنه من العسير جدا عليهم احتلال تونس، فهي مدينة جد محصنة، يدافع عنها جيش عرمرم، لذلك أحسوا بخيبة مرة وتخلوا عن

---

75) De Bury, Histoire de Saint Louis, p. 127

76) نفسه

77) ابن خلدون، نفس المصدر، 293

78) De Bury, Histoire de Saint Louis, p. 127.

79) نفسه، ص 128

نية الهجوم عليها واكتفوا بالدفاع عن موقعهم بقرطاج، (80)، وقد بدأ المسلمون يناوشونهم من كل مكان في عصابات تعتمد طريقة الكر والفر وتنال منهم كثيرا، وكانت الهجومات عليهم لا تكف كل آن (81). ولقي الصليبيون من امرهم عنتا، وشعروا بالوبال والندامة فبالاضافة إلى القيظ الشديد الذي لم يتعودوا عليه، كانوا يعانون من الرمال المحرقة التي يذروها التونسيون بآلات في وجوههم، فتأخذها الرياح الساحلية إلى الأنوف والأفواه "فهي تدخل الأجسام عن طريق التنفس وتجفف الرئات كما أن انعدام الماء الصالح للشراب وشرب المياه الآسنة والمتعفنة وأكل الأغذية الفاسدة جعل الصليبيين يحسون بأنهم مسجونون، مطوقون من جميع الجهات" (82) حتى انتشرت الحمى في صفوفهم وأصيب عدد كبير منهم بالاسهال وقضوا نحبهم، من بينهم كونتات وأعيان عديدون منهم خاصة جان كونت دي نوفار المعروف بترستيان ابن لويز التاسع وكان أثيرا عنده، وسرعان ما لحق به والده في 25أوت 1270 في سن السادسة والخمسين بعد أن تولى الملك اربعا

---

80) نفسه : ص 130 .

81) نفسه : ص 130 .

82) نفسه : ص 130

وأربعين سنة (83). وقد فزع الصليبيون لموته. وخلفه عليهم ابنه فيليب الجسور (لوهاردي)..

وفي نفس اليوم وبعد ساعات قليلة من موت لويز التاسع أطلت مراكب شارل دانجو محملة بالصليبيين والأغذية. وكم كانت خيبة هذا الأمير عظيمة حينما رأى الوضع المتردى بقرطاج وشعر بالمأزق الذي وقع فيه. لا سيما وأن أخبار المعارك لم تكن مشجعة، وقد تسرب في جيش الصليبيين عيون المستنصر على أنهم يرغبون في التنصر ولقوا أحسن استقبال (84)، وكان المسلمون يهجمون عليهم من جميع النواحي خاصة عبر البحيرة وهي موقع استراتيجي حاول شارل دانجو احتلاله بدون جدوى (85). ويذكر ابن خلدون بعض الوقائع الحربية التي أصاب فيها المسلمون غرة في العدو فظفروا وغنموا حينما سلكوا طريقا في البحيرة (86). ويذكر

---

83) غلي حسمه في الخمر الممروح بالماء، وأخذ اللحم والأمعاء إلى دير مونريال قرب بالرم بصقلية، وأخذ القلب والعظام إلى دير القديس دونيس بباريس (انظر ص 135 من كتاب تاريخ القديس لويز). وقد تردد في تونس أن الملك لويز لم يمت بالوباء وانما بسهم أو بسيف مسموم بعثه إليه السلطان (تاريخ ابن خلدون ، ح 6، ص 293).

84) De Bury, Histoire de Saint Louis, p 129.

85) نفسه ص 136

86) ابن خلدون التاريخ : ح 6، ص 293.

لقاء منتصف محرم من سنة 669 بالمنصف حيث تقابل الفريقان في العشاء ليلا، وتكبدا خسائر باهضة في الأرواح وقتل من النصارى زهاء خمسمائة (87). ويبدو أن المجاعة والعطش والوباء واليأس من الانتصار على هذه الجموع الغفيرة من المقاومين وقرب حلول فصل الشتاء عوامل دفعت الصليبيين إلى طلب الصلح. وقد وقع هذا الطلب في نفس المستنصر الموقع الحسن اذ بدأ يضيق بالأمر بعد أربعة أشهر من القتال العنيف منذ حلوا بقرطاج في 17 جويلية 1270. وخشي تفرق المجاهدين بقدوم الشتاء، كما أن الوباء قد أخذ ينتشر في صفوفهم لذلك رضي بالصلح (88).

د ـ اتفاقية الصلح :

اشتملت اتفاقية الصلح على تسعة عشر بندا، تنص على ضمان الأمن للمسلمين من رعايا المستنصر في بلاد الافرنج وكذلك الأمن لرعايا الممضين من النصارى في بلاد افريقية.

والممضون من الجانبين هم فيليب الجسور وشارل دانجو وتيبو ملك نافار والمستنصر وأبو زيان محمد بن عبد القوي أمير بني توجين الذي انعقد على يديه الصلح والعلماء عبد الحميد

---

87) نفسه.

88) نفسه ص 294.

بن أبي الـدنيا الصـدفي الطرابلسي (606 ـ 684) قاضي الجماعة والفقيه الشاعر (89)، وعلي بن ابراهيم بن أبي عمر التميمي وهو كاتب بديوان الانشاء وأبو القاسم بن أبي بكر بن زيتـون اليمني (620 ـ 691) المدرس الشهير والعلم الكبير (90).

كما أن الاتفاقية تضمن حرية التجارة بين الجانبين خاصة التردد والاقامة في بلادهما وعدم مساعدة الأعداء من الطرفين وطـرد المهـاجـرين المعـارضين وذلك لمدى خمس عشرة سنة بالاضافة إلى تبادل الأسرى. ولئن كان هذا العقد يشجع تجار تونس على الاتجار في الشواطئ الأوربية فإنه يحتوي على بنود سيئة بالنسبة إلى المستنصر، وهي البند السابع والثالث عشر والثامن عشر (91).

فالبنـد السـابع يقضي " بأن يكـون رهبـان النصـارى وقسـوسهم سكانا في بلاد أمير المؤمنين وهو يعطيهم موضعا

---

89) و (90) عرفنا في في اطروحتنا.

91) نشر نص الاتفاقية بالفرنسية معربا عن العربية وكذلك بالعربية مرات كثيرة، انظر ملاحظة عدد 1، ص 62 من اطروحة الأستاذ برنشفيك، ج 1، (بالفرنسية). وقد ترجم هذه الاطروحة الاستاذ حمادي الساحلي وهي تحت الطبع عن دار الغرب الاسلامي ببيروت

في مجلة "الحياة الثقافية" عدد 15 ـ 16، لسنة 1981، بعناية الأستاذ محمد العروسي المطوي.

يعمـرون فيه دياره وبيوت الصـلاة ومـواضع لدفن موتاهم والـرهبـان والقسوس المذكورين (هكذا) يعظون ويصلون جهـرا في كنائسهم ويخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معوّدون في بلدهم" .

أما البند الثالث عشر فيقضي بأن يعطي المستنصر مائتي ألف أوقية ذهبا وعشرة آلاف أوقية من الفضة نصفها معجل والنصف الثاني مقسط في عامين.

والبنـد الثامن عشر أضيف أخيرا إلى العقد ويقضي بأن يؤدي المستنصر لشـارل دانجـو اتاوة سنوية زيادة على اتاوة الخمس سنـوات المـاضية. ومـازال المؤرخـون التـونسيون يتساءلون عن سبب قبول المستنصر لهذه الشروط . وقد أغرم الـرعايا ما أعطاه من مال للعدو، فدفعته عن طواعية (92) وطيب نفس (93) .

وبعد توقيع الاتفاقية دخل الصليبيون إلى تونس كما دخل المسلمـون معسكـر النصـارى وباعوا معهم واشتروا (94) . وبعـد يومـين أقلع النصـارى بأسـاطيلهم يوم 25 نوفمـبر

---

92) ابن خلدون · المصدر المذكور . ص 294 .

93) الخلاصة البية : ص 67 وتاريخ القديس لويز (بالفرسية) : ص 139

94الأدلة البيّنة : ص 67 وتاريخ القديس لويز (بالمرنسية) ص 139 .

1270 . وفي رجوعهم إلى صقلية أصابهم عاصف من الريح أغرق كثيرا من سفنهم وأهلك العديد منهم (95)

وكـان من نتـائج هذه الحملة الصليبية أن أمر السلطان الحفصي بتخريب قرطاج وتهديم سورها وما تبقى من بنيانها خشية من أن يعود الافرنج إلى هذا المكان من جديد وتحصنوا به (96) . وقد حرص المستنصر أن يدعم ملكه، ولم تثن هذه الحملة عزمـه على التفتـح نحـو الامارات الغربية فما لبثت العلاقات أن عادت بين افريقية وصقلية وازدهرت التجارة بين التونسيين والمسيحيين (97) . وقد فشلت هذه الحملة في ضرب قلب الاسلام الذي كانت تمثله تونس، واستمرت افريقية في ذلـك العصر موطن أمن وسلام وسط بلاد الاسلام الممزقة المغلوبة على أمرها (98) .

---

95) اس خلدون : المصدر المذكور، ص 294، وتاريخ القديس لويز، ص 139 .

96) ابن حلدون المصدر المذكور، ص 293 .

97) محمد الهادي الشريف. تاريخ تونس، دار سراس للنشر، تونس 1980، ص 54

98) نفسه : ص 53 .

مساهمة المنستير في الحياة الثقافية في العهد الحفصي *

إن المصـادر المتوفرة لدينا ضنينة كل الضن بالأخبار عن الحياة الثقافية والأدبية بالمنستير في العهد الحفصي. فلئن كنا نعثر عن افادات كثيرة متعلقة بالحياة الاقتصادية والعسكرية والعمـرانية والتجارية الخاصة بالمنستير خلال كامل العصور منـذ بنى السور هَرْثَمة بن أعين الهاشمي سنة 180 هـ وكـان واليا لهارون الـرشيد على افـريقية، فانه يصعب أيما صعـوبـة أن نجد القليل من الدراسات عن الحياة الثقافية بالمنستير في العهد الحفصي، لا سيما منذ انتصاب أبي زكرياء الحفصي بتـونس أميرا سنة 625 هـ واتخاذ تونس عاصمة لافريقية والمغرب الأوسط وجزءا من المغرب الأقصى بعد ان كانت المهـدية القريبة من المنستير بحوالي 40 كلم عاصمة لتميم بن المعـز بن باديس الصنهـاجي (ت 501 هـ)، وكان ملكه ممتدا على الساحل فقط من سوسة إلى قابس (1)

---

* بحث القي بالمستير يوم 18 جويلية 1987 في ملتقى "مدينة المنستير عبر التاريخ" بمناسبة مئوية بلديتها 1887 ـ 1987.

1) حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس، ص 114.

بينما كانت تونس والقيروان وقفصة بأيدي أمراء من الأعراب أعلنوا استقلالهم (2). وفي عهد هذا الأمير الصنهاجي شاهد الساحل التونسي هجوم أسطولين عظيمين، الأول سنة 480 هـ قدم من جنوة في 300 مركب تحمل ثلاثين ألف مقاتل تمكنوا من النزول بجانب المهدية وأحرقوا وسبوا وصالحهم تميم على مال أخذوه وانصرفوا (3). والثاني من رومة في 23 سفينة حربية هزمه تميم وقتل كثيرا من المهاجمين حتى أقلعوا خائبين (4).

وقد شاركت المنستير في صد هذا الهجوم إذ كانت قلعة يصدر عنها المقاتلون ومحرسا مهما يراقب هذه المواقع.

وفي عهد تميم استولى الرمان على صقلية سنة 484 هـ بعد أن دام الملك الاسلامي فيها أكثر من 170 سنة، وسيتخذها النصارى مركزا لهم ينطلقون منه لاحتلال المدن الساحلية التونسية. ففي سنة 517 هـ أرسل رجار ملك صقلية أساطيله إلى المهدية ونزل النصارى بجزيرة الديماس قرب البقالطة لكن انهزموا ورجعوا خائبين وأعاد رجار الكرة سنة 536 هـ، وتمكن من احتلال سوسة وصفاقس والمهدية. والمنستير من بين الثغور الساحلية التي حازها

---

2) نفس المرجع

3) نفس المرجع . ص 110

4) نفسه .

"فأصبحت البلاد التونسية نهبا مقسوما بين النورمان في السواحل والأعراب في الداخل"(5) . ولم تتحرر السواحل التونسية إلا بقدوم عبد المؤمن بن علي من المغرب الأقصى اذ استطاع أن يخلص المهدية من النورمان بعد حصار متواصل دام ستة أشهر في سنة 555 هـ وهي السنة المشهورة بسنة الأخماس.

ولا شك أن المنستير قد قامت بدور مهم في هذه المعارك، غير أننا سوف لا نتحدث في هذا البحث الا عن الجانب الثقافي في الحياة العامة بالمنستير بعد أن جلا النصارى عن المهدية واستقرت الحياة نوعا من الاستقرار في كامل الفترة الحفصية من سنة 555 هـ إلى أوائل القرن العاشر الهجري حين تمكن الامبراطور الاسباني شارل الخامس من تونس سنة 904 هـ ثم سنة 941 هـ فسنة 980 حيث حاول الاسبان تمسيح البلاد وقتلوا خلقا عظيما إلى أن أنقذ العثمانيون البلاد سنة 981 هـ وكان من جراء الاحتلال الاسباني انتزاع الرباط من أيدي الواقفين عليه وتوقيف كل نشاط ثقافي وعلمي به. فكيف كانت المنستير خلال هذه الفترة إلى الاحتلال الاسباني لتونس من الناحية الثقافية ؟

---

5) نفسه، ص 119

يمكن أن نتناول مساهمة المنستير في الحياة الثقافية في العهد الحفصي من خلال ثلاثة مراكز اهتمام .

1) المنستير منتدى لرجال الفكر والثقافة والأدب والعلم والدين يقصدونه من كامل البلاد التونسية ومن الخارج .
2) المنستير مركزا تعليميا مهما يقبل عليه الطلبة من كافة النواحي .
3) المنستير مركزا للاشعاع الروحي والتصوف والتجرد لعبادة الله .

1) المنستير منتدى لرجال الفكر والأدب والعلم

كانت المنستير مقر إقامة عدد من الأدباء والشعراء ورجال الدين قدموا خاصة من المهدية والقيروان ، نذكر منهم الأديب الشاعر الفقيه أبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن عثمان الزناتي الحنفي (ت 13 صفر 655) ، وقد لزم السكنى بمدينة المنستير بعد أن رحل إلى دمشق والموصل وتفقه في مذهب أبي حنيفة حتى صار إماما فيه (6) . وكان يتمتع بجراية يجريها عليه أبو زكرياء الحفصي ، وكان يرحل مرات كثيرة من المنستير إلى تونس قاصدا أبا زكرياء لمجالسته ومؤانسته . وعرف

---

6) رحلة التجاني : ص 369 ـ 370

الحنفي بهجائه للمهدية وأهلها، ولنا عينات من شعره فيها وفيهم. واشتهر الحنفي شهرة واسعة في عصره إذ صار علما بارزا تنقل أخباره وتروي أحاديثه وأشعاره. لم يترجم له أصحاب التراجم المالكية القديمة لحنفيته لذلك لا نعلم عنه الكثير. وقد تخرج عنه بالمنستير عدد وافر من العلماء نذكر منهم أبا زيد عبد الرحمان بن الدباغ صاحب "معالم الايمان في معرفة أحوال القيروان" ومشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب" في التصوف وأبا يحيى بن عبد الكريم الصدفي وأبا عبد الله محمد بن أبي القاسم الأزدي (7). وصارت المنستير بوجود أبي عبد الله محمد الزناتي الحنفي فيها مركزا لتعليم مذهب أبي حنيفة لأول مرة في التاريخ المذهبي الديني بافريقية، اذ عرف الزناتي الحنفي في هذا العهد بأنه الوحيد بافريقية المشتغل بهذا المذهب ولعله كان يقصد هنالك لأخذه عنه والتكون على يديه فيه.

ونذكر كذلك الشاعر أبا عمرو عثمان بن عتيق بن عثمان بن عربية، كان أديبا محدثا، من فحول الشعراء، له عدد من التآليف الدينية والأدبية، منها كتاب "جوامع الكلم

---

7) ترجمنا للحنفي في القسم الأول من أطروحتنا عن الحياة الأدبية في العهد الحفصي، انظر عنه بالاضافة إلى رحلة التجاني : الوزير السراج : الحلل السندسية : ج. 2، ص 497 - 499، محمد مخلوف : شجرة النور الزكية : ترجمة عدد 641 (في ترجمة أبي القاسم بن البرا).

النبوية" وكتاب "آثار السحابة في أشعار الصحابة" وكتاب "سنن القوم في آداب الليلة واليوم"، ولعل هذا التأليف الأخير يمت بسبب متين إلى إقامة الشاعر بالمنستير وحضوره الاحتفالات الدينية بها. وقد كان قاضيا بتبرسق وطلب من الأمير الحفصي أن ينقله إلى القضاء بأحدى مدن الساحل، لكن الأمير لم يلب طلبه، وكم حن الشاعر وهفا إلى المهدية والمنستير متذكرا ما قضاه فيهما من ليال آنسة ومن أوقات تمتع فيها بكثير من الخيرات، يقول (8) :

ذكرت جمة والذكرى تهيج لي أسى واين جّمة مني والمنستير
وما مناي لياليها التي سلفت ولا هواي مجانيها المعاطير
لكن بها رحم محفوفة يَئِسَت من أن تقرّبني منها المقادير
فان رأى من ادام الله نعمته عليه لي خطة فيها فمأجور

وكان ابن عربية من مفاخر البلاط الحفصي، يعتبره أبو زكرياء الحفصي الشاعر الأول في تونس مفضلا اياه على غيره من الشعراء كابن الأبار والكومي. يقول أبو زكرياء :

ألا ان مضمار القريض لممتد به شعراء الغرب أربعة لدّ
فأما المجلّي فهو شاعر جّمة أتى أولا والناس كلهم بعد

8) رحلة التيجاني : ص 378 .

كان شعر ابن عربية مشهورا ومدونا في ديوان عنوانه " قصائد المدْح ومصائد المنْح "، واستأثر فيه غرض الحنين إلى الأوطان والتعلق بالمهدية والمنستير بنصيب كبير، كان الشاعر يتلقط أخبار هذين البلدين ويتبجج بما فيهما من معالم وآثار ومشاهد طبيعية خلابة خاصة الشاطئ الجميل والبحر المائج، يقول (9) :

أقول لركب قافل عن معرّس بجمة تردى بالحمول مشاحجه
لك الله أمتعنا عن البلد الذي أكابره أسلافنا وأبالجه
وعن وطن لولا العلى وطلا بها لعز علي مثواي أني خارجه

وكان يقيم بالمنستير في مناسبات دورية عدد كبير من الفقهاء والعلماء والزهاد يجيؤون خاصة من القيروان، متخذين الرباط مركزا من مراكز نشاطهم الديني والصوفي، وكان الكثيرُ منهم يقضون رمضان متبتّلين بالمنستير ومنهم من يصرف فيها ثلاثة أشهر، رجب وشعبان ورمضان، يخصصونها لتلاوة القرآن وقراءة الأذكار (10) وكان العلماء يلتقون فيها خاصة ليلة عاشوراء حيث تعقد مواكب خاصة

9) نفسه ص 377 وترجمنا أيضا لهذا الشاعر في أطروحتنا، الترجمة عدد 31، وفي آخر الترجمة قائمة ببليوغرافية عنه، وقد أحصينا أحد عشر مصدرا عنه

10) IDRIS Hady Roger La Berberie Orientale sous les Zirides, TII, p, 447

وينظم مجمع كبير فخيم حسب عبارة البكرى (11)، يقضون الليلة كلها في الصلاة والتعبد (12).

وفي "معالم الايمان "خاصة بالجزء الرابع منه، أصداء لهذه الزيارة المتكررة، اذ تفد إلى المنستير جموع غفيرة من من القيروان لاسيما أيام الاستنفار للجهاد أو زمن الصيف للتمتع بهواء البحر المنعش والطقس الجميل. ومن الفقهاء المتصوفة الذين سلكوا الطريق الرباني وأقاموا طويلا بالمنستير واضطلعوا فيها بنشاط صوفي كبير نذكر أبا عبد الله محمد بن عبد الله السبائي الجديدي (ت بمكة سنة 786 هـ) صاحب زاويتين شهيرتين الأولى بالقيروان والثانية بالمهدية (13) فقد كان يتردد على الرباط مع أصحابه (14)، وعنه أخذ عالم المنستير محمد بن أبي زيد المنستيري حين كان صبيا بالقيروان. ونذكر أبا يوسف الدهماني وقد سكن رباط سقانص، وكان من أعلام طريق الارادة وكبار مشائخه وكان له في ابتداء أمره رياضات ومجاهدات وصدق معاملات (15)،

---

11) مخلوف : شجرة النور الزكية، الملحق : ص 191

12) ابن الدباغ وابن ناجي . معالم الايمان ج 4، ترجمة أبي سالم القديدي

13) محمد البهلي النيال : الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي ص 267

14) نفسه.

15) ابن الدباغ وابن ناجي معالم الايمان ج 4، ترجمة أبي يوسف الدهماني.

توفي ليلة عاشوراء في محرم سنة 671 هـ . ونذكر أبا علي سالم القديدي، كان يختلف إلى المنستير منذ شبابه، ويتصل هنالك بالعلماء والأولياء، ويختلط بالمرابطين ممن باعوا نفوسهم إلى الله، وقد قصدها مرة من القيروان في جموع غفيرة لمقاتلة المهاجمين من النصارى وكان منطلقُهم قصر الرباط. وفي "معالم الايمان" (ج 4) خاصة في ترجمة سالم القديدي أخبار عن الأحوال النفسية لدى الشعب بسوسة والمهدية والمنستير حين كان يتوقع نزول العدو بالساحل كل ليلة. ونذكر أبا الحسن علي بن عياش العبيدلي، كان يخرج مع أصحابه في الصيف إلى المنستير ومعهم الأسلحة استعدادا لقتال المهاجمين النّصارى (16).

وبالجملة فقد "كانت هذه الرباطات عامرة بالمرابطين والعلماء والصلحاء والصوفية، وكان بعضهم يسكنها مع زوجته. وفي هذه الرباطات كانت شيوخ من العلماء يتابعون قراءة كتب دينية معينة كالمدونة وغيرها وكانت لهم فيها دروس منظمة وتلاميذ من المرابطين. وفي المكتبة العتيقة بجامع عقبة بالقيروان بعض النسخ من المدونة عليها سماعات كان سماعها من فلان بقصر المنستير أو قصر زياد. وفي المكتبة أسفار مما نسخه في قصور الرباطات بعض المرابطين" (17).

---

16) نفسه، ترجمة ابن مرزوق الصملي.

17) محمد البهلي النيال : الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي · ص 159.

2) المنستير مركزا تعليميا :

كانت المنستير مركزا من مراكز التعليم بافريقية، يقصده الطلبة من بعيد للدرس والتعلم والتفقه في الدين على أيدي علماء المنستير أو العلماء الوافدين عليها من المرابطين أو من المارين بها، اذ كان الرحالون يتبركون بزيارة المنستير. ومن أشهر المدرسين المنتسبين إلى المنستير، والذين حصلوا شهرة عريضة بتونس وخارجها نذكر اثنين انتصبا للتدريس بجامع الزيتونة ونالا المجد العلمي : الأول هو أبو عبد الله بن عبد السلام بن يوسف بن كثير المنستيري الهواري (676 ـ 749) قاضي الجماعة بتونس سنة 734، بقي في هذا المنصب طيلة خمس عشرة سنة إلى وفاته، وكان يدرس بجامع الزيتونة ومدرسة عنق الجمل والشّماعية، تخرّج عليه أعلام فطاحل منهم ابن خلدون وابن عرفة. كان متبحرا في الأصول والكلام والعربية والبيان، وكان يتوخى في تدريسه طريقة التعليل والاستنتاج. من تآليفه "تنبيه الطالب لفهم ألفاظ جامع الأمهات لابن الحاجب" وكان هذا التأليف رائجا في البلاد الاسلامية (18).

---

18) انظر ترجمته في القسم الأول من أطروحتنا، الترجمة عدد 123، أحصينا عنه حوالي عشرين مصدرا ومرجعا.

أما المدرس الثاني فهو أبو العباس أحمد المنستيري النحوي واللغوي. كان حيا سنة 848. أخذ عن ابن عرفة وابن خلدون، وصفه لنا القلصادي في رحلته بعد أن وقف على علمه ونهل من دروسه نهلا، قال عنه: "لم يكن يعتني بأحد من أهل الدنيا ولا يعظمه وبه كان انتفاع طلبة أهل تونس ومن يرد عليها بالنحو في زمانه. قرأت عليه كتاب "المقرِّب" لابن عصفور وبعض "التسهيل" لابن مالك، كذلك الجمل للخونجي وحضرت كتاب الجمل للزجاج غير مرة وكذلك المقرب لابن عصفور ومقدمة ابن بابشاد وبعض الألفية وبعض التسهيل وبعض ابن الحاجب الأصلي والتنقيحات للقرافي وبعض المعالم الفقهية. ولم أر أحفظ منه لكلام ابن عصفور، ولا من يستحضر نصوص المتقدمين من النحاة مثله (19). فكان أحمد المنستيري من دعائم المدرسة النحوية التي أرسى قواعدها ابن عصفور في تونس، وكان له الأثر الكبير في موطنه المنستير ثم في بلده افريقية بصفة عامة.

ومن أساطين التدريس بالمنستيرَ العالم أبو عبد الله محمد بن أبي زيد المنستيري، كان مربيا عظيما مثل سميه القيرواني

---

19) القلصادي : الرحلة : ص 116 ـ 117. انظر عنه : احمد بابا : نيل الابتهاج · ص 79 ـ 80، محمد مخلوف : شجرة النور الزكية · ص 246.

صاحب "الـرسالة". تكون بالقيروان والمنستير ثم انتصب بدوره مدرسـا بالـربـاط يتخـرج عنـه الطلبة. وكان له من التلامذة ما يزيد على المائة (20) ثم خلفه ابنه أبو العباس أحمد المتوفى سنة 869، كان يدرس الفقه، "أخذ عن والده وقام مقـامـه بشؤون قصر المنستير" (21)، وقد حصل النفع بهما واشتهر أمرها. وقد جعلا من الرباط زاوية لتربية المريدين. وكان كل منهما يعرف بشيخ الرباط (22). وورثهما أحفادهما بالوراثة إلى أن جاء الاحتلال الاسباني فانتزع الاسبان منهم الـربـاط وانتقـل الأحفاد بمهمتهم إلى زاوية سيدي ذويب بالمنستير (23) بل ان الاسبان هدموا جانبا من الرباط وقتلوا الكثير من المرابطين وأسروا عددا منهم كبيرا (24)

وقـد كانت المنستـير قبـل الاحتلال الاسباني لها، مركزا للتعليم مغريا، إذ أن كلّ من حل به يجد مسكنا يأوي إليه

---

20) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية، ص 886، محمد البهلي النيال، الكتاب المذكور ص 167.

21) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية، ص 944.

22) نفسه : البهلي النيال : الكتاب المذكور، ص 167

23) نفسه

24) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص 193

ومعلما يؤدبه ويعلمه القرآن والعلوم الدينية ويجد ما يلزم من أمر المعيشة وهي أمور تعين على طلب العلم (25). وكانت الأموال تأتي إليهم من الأحباس ومن شتى المدن التونسية مثل قفصة ونفزاوة وقابس والوطن القبلي والقيروان (26). وقد تزايد العمران بالمنستير، وطوقت بالجنات والبساتين المنتجة لشتى الثمار والفواكه (27). ويصف مخلوف ما يجد المنستير من حدائق وبساتين ذات الأشجار الملتفة اليانعة خاصة بساتين سقانص وما تنتجه من ثمرات طيبة النكهة (28).

كما ذكر القرطين وهو مكان يبعد عن المنستير بنحو ثلاثة أميال يتميز بالأراضي الخصبة، اعتني بغراستها وزراعتها. منذ العهود القديمة وبها آبار كثيرة (29). ولنا وصف فريد لبساتين المنستير بقلم ليون الافريقي، قال : "ويوجد خارج المنستير عدد كبير من الممتلكات الزراعية المغروسة بأشجار الفواكه كالمشمش والتين والتفاح والرمان وبعدد لا يحصى من شجر الزيتون" (30)، مما يجعل الاقامة بالمنستير مستحَبّة، ومما

25) نفسه : ص 194 .

26) نفسه.

27) نفسه : ص 197

28) نفسه : ص 196 .

29) نفسه : ص 193 .

30) ليون الافريقي : وصف افريقيا ج 2، ص 85 .

يشجع على التفرغ لطلب الراحة الفكرية أو الخلود إلى حياة تتغلب فيها النزعة الروحية. وهذا ما سنعالجه في القسم الثالث.

ـ 3) المنستير مركزا للاشعاع الروحي والتصوف والتجرد لعبادة اللّه

استرعت المنستير انتباه الراحلين والعلماء والفقهاء والمؤرخين وأصحاب التراجم لدورها منذ القديم في الحياة الروحية بصفة عامة. فقد كانت ثغرا من الثغور الأفريقية الهامة وموقعا يرابط فيه المجاهدين بخيولهم مترصدين العدو، مستعْدين للنزال والمحاربة. وتروى كثير من الأحاديث في فضل من رابط بالمنستير والأجر المعد لهم في الآخرة. فمن هذه الأحاديث أن المنستير باب من أبواب الجنة من دخله فبرحمة اللّه ومن خرج عنه فبعفو اللّه، وأنه من رابط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة، وله في هذه الثلاثة أيام كأجر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين (31). وغاية هذه الأحاديث هي الترغيب في المرابطة. الاّ أن الاستعداد العسكري للجهاد تزاوج مع الاستعداد النفساني والانقطاع للعبادة حتى

---

31) رحلة التيجاني ، ص 30 ـ 32 .

صارت قصور المنستير شبيهة بالزوايا والتكايا أو الخانقاهات على حد تعبير ابن خلكان (32) حبس فيها المرابطون أنفسهم منفردين عن الأهل والعشائر (33)، وهكذا أصبح الرباط بمثل منذ عهده الأول مركز إشعاع روحي ومصدر خير وبركة (34)، وأصبح المرابطون يمثلون السلوك المستقيم في التدين والتقوى، وكانوا يحظون بالتقدير وحتى التقديس من سكان افريقية "الذين كانوا متشبعين بالتدين العميق والتمسك بمبادىء الاسلام" (35)، حتى أحيط الرباط وسكانه بهالة من التقديس، وصارت المنستير مدرسة يتخرج منها أصحاب الطرق والزوايا. فلا عجب أن يقارن أحد المؤرخين لحركة التصوف بالجمهورية التونسية رباط المنستير بمسجد السبت بالقيروان في العهد الأغلبي، وهو مسجد كانت تجتمع فيه جماعة لتناشد الأذكار والأشعار وذكر أهوال يوم القيامة مع التغنّي بألحان حزينة والضرب على الصدور (36). يقول البهلي النيّال في كتابه "الحقيقة التّاريخية للتصوف الاسلامي : "صار رباط المنستير مع مسجد السبت في

---

32) محمد مخلوف . شجرة النور الزكية : ص 189 .

33) نفسه : ص 190

34) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات : ج 3، ص 404 ـ 405 .

35) نفسه .

36) محمد البهلي النيال : الكتاب المذكور : ص 153

القيروان كمدرسة لتخريج الشيوخ وتأسيس الزوايا في الجهات التي تأهلت لظهورها. وتسابق لذلك الشيوخ والمريدون وعمروا كل المناطق الافريقية قبل القرن الثامن"

وعلى عكس ما لاحظه هادي روجير ادريس بالنسبة الى العهد الصنهاجي فان المرابطين بموا طيله العهد الحفصي يرابطون للقتال وفي الآن نفسه يجاهدون أنفسهم في فنون من الرياضة الروحية (38)، وان الخط الفاصل بين الجهادين ليصعب تحديده. وكانت السُّنّة المعمول بها في رباط المنستير منذ العهد الأغلبي هو التمحض للعبادة والذكر مع الاستعداد الفعلي للقيام بفرض الجهاد، ولم تفقد الأربطة كل قيمتها العسكرية بل ساعد العامل النفساني والظروف السياسية بافريقية وهجوم النصارى على السواحل على اشعال الايمان في القلوب واذكاء العواطف الدينية.

قد كان العلماء يقتدون بالامام سحنون (160 ـ 240) الذي كان "كثير الزيارة لرباط المنستير والتردد على أهله المرابطين فيه، لا سيما في أيام المواسم الدورية وله مع عباده وصلحائه وعلمائه صلات ومكارمات" (39).

---

37) نفسه ص 167

38) IDRIS Hady Roger La Berberie Orientale sous les Zirides, TII. p. 688

39) محمد البهلي النيال · الكتاب المذكور، ص 164.

ولـنــا نص قديم عما كان يجرى في ليالي المـنستــير من الاحتفـالات الدينية عقب صلاة العشاء، اذ كان المصلون يجتمعون بالليل ومعهم قناديل يمشون فوق السور يذكرون أنهم يريدون العسكر ويقولون باجماع أصواتهم : سبحان الله العـظيم، بتـطريب وتحـزين وينصرفـون على تلك الصفـة يمشـون في الأزقة ويجوزون على المجازر والمزابل، وهم على تلك الحال من الاجتماع والتطريب الى أن يبلغوا السور، وقد نهوا عن فعـل ذلـك في الـطرقـات وأمام المزابل، ونهوا عن التـطريب والاجتــماع، وأمروا أن يكونوا على السور ويتركوا التطريب، وأن يكتفوا بالتكبير والتهليل في الرباط (40). وهذا النص في قالب استفتاء قدم للامام المازرى (ولد سنة 453 وتوفي حوالي سنة 536)، وقد ردّ المازرى بأن الاستماع بالذكر والتـطريب والتحـزين ورفـع الصـوت بدعـة. وكان هؤلاء يَلْبِسـون الخـزّ والمسـوح والصـوف الخشن الأسـود مما أنكره المازرى أيضا (41).

40) حسن حسني عبد الوهاب : الامام المازري، ص 76 عن "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب "لأحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914).

41) نفسه · ص 82

هكـذا استخـرجنـا بعض المظاهر الثقافيه التي تمت الى السلوك الديني والصوفي بأسباب . وكانت هذه الحركة الثقافية بمـظاهـرهـا الثـلاثـة اجتماع العلماء بعضهم ببعض والقاء الدروس في الفقه والنحو والقراءات والتصوف وأخيرا الالتزام ببعض الـطقـوس الـدينية ذات الـطابـع الغنائي والتمثيلي والمحمّلة بالأغـراض الحـاثـة على التقـوى والايمان العميق والتـدكـير بالمـوت واليوم الآخـر والمـطالبـة بالجهاد ومقارعة النّصـارى، كانت هذه الحركة أصيلة تاريخيا، سنَّ طريقها وتقاليدها أيمّة العهد الأغلبي وعلماء المنستير أنفسهم أمثال. ابن يونس الصقـلي والمازرى وابن العطار ويوسف بن نصر وجابر المهدوى ممن ترجم لهم محمد مخلوف في "شجرة النور الزكية" .

المصادر والمراجعة

أحمد بابا : نيل الابتهاج بتطريز الديباج : طبع بهامش كتاب الديباج المذهب، صورة بالاوفسات للطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

التجاني أبو محمد عبد الله : الرحلة في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس 1958.

الزناد عبد الله : الامام المازري وقصر الرباط، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس 1967.

عبد الوهاب حسن حسني : ـ الامام المازري، دار الكتب الشرقية، تونس 1955.

ـ خلاصة تاريخ تونس، دار التونسية للنشر، تونس الطبعة الرابعة، 1968.

ـ ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية، القسم الثالث، مكتبة المنار، تونس 1972.

القلصادي أبو الحسن علي الأندلسي : الرحلة : تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978.

ليون الافريقي الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقية ج 2 ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1982 .

مخلوف محمد : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية : طبعة بالافسات عن الطبعة الأولى، بيروت، د. ت . (الاصل والملحق) .

ابن ناجي أبو الفضل أبو القاسم : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ج 4، تونس 1320 . أصل الكتاب لأبي زيد عبد الرحمان بن الدباغ .

النيال محمد البهلي : الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي : مكتبة النجاح، تونس 1960 .

النيفر محمد الشاذلي : المازري الفقيه والمتكلم وكتابه المعلم : منشورات اللجنة الثقافية الجهوية بالمنستير، د. ت .

الوزير السراج محمد بن محمد الأندلسي : الحلل السندسية في الأخبار التونسية : تحقيق محمد الحبيب الهيلة، 4 أجزاء ، الدار التونسية للنشر، تونس 1970 .

BRUNSCHVIC Robert La Berbérie Orientale sous les Hafsides des origines à la fin du xve. siècle, 2t, Librairie Adrien-Maisonneuve, Paris 1982.

IDRIS Hady Roger : La Berbérie Orientale sous les Zirides, Paris 1962.

نتف من إكمال الأكمال أو لمح من الحضارة العربيةبتونس خلال القرن الثامن الهجري

عنوان الكتاب هو "إكمال إكمال" المعلم لأبي عبد الله محمد بن خلفة الوشتاتي الأبّي المتوفى سنة 828 هـ. وطبع على نفقة سلطان المغرب الأقصى عبد الحفيظ بن الحسين بن محمد عن مخطوطين أحدهما بالمغرب والثاني من المكتبة الخديوية بمصر. وتاريخ الطبع سنة 1328 هـ وهو شرح على صحيح مسلم.

ضمنه مؤلفه كتب شراحه الأربعة المازري وعياض والقرطبي والنووي مع زيادات مكملة وتنبيه على مواضع مشكلة من كلامهم مع الالتزام بالاختصار. ولما كان هذا الشرح في الحديث النبوي الشريف فإن المؤلف قد أورد فيه فقرات مفيدة جدا عن الحضارة بتونس خلال العهد الحفصي خاصة خلال القرون السادس والسابع وأول الثامن. وقد جاء الكتاب في سبعة أجزاء ضخمة.

وكان الأبي مدرسا وقاضيا. اشتهر بتأليفه هذا : إكمال إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم وله تفسير للقرآن الكريم وشرح لمدونة سحنون. وفي هذا الكتاب الضخم نجد نتفا تهمّ الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية بتونس خلال القرن الثامن الهجري وقبله، ارتأينا جمعها لنقف على لمحات من الحضارة العربية بتونس في العهد الحفصي.

من مجالس أبي الحسن المريني بتونس

ولما ملك الأمير أبو الحسن ملك المغرب وإفريقية وكان يصنع له الميعاد بالقصبة منها، وكان يحضره ابن عبد السلام وابن هارون وغيرهما من الفقهاء التونسيين، والسطّي وابن الصباغ وغيرهما من الفاسيين فاتفق أن نقل كلام القاضي هذا بعض الطلبة، فأنكره جميع أهل المجلس فأتى الطالب "بالإكمال" من الغد وقرئ بمحضر الجميع فكلهم أنكره.
ج. 2. 241

* * *

السّجود في الصلاة

ويحكى أن الشيخ ابن عبد السلام كان لا يقرأ سورة في الصلاة فيها سجدة من غير العزائم مخافة أنه إذا لم يسجد على المشهور يقع في مخالفة القول بالسجود فيها.

قال الشيخ : وكنت أفعله في النجم أي لا أقرأ بها لذلك حتى أخبرني من أثق به أنه رأى والدي في المنام وقال له : قل له يقرأ بها أو قال : وما يمنعك من القراءة بها.

قال : فصرت من لذن ذلك أقرأ بها في الصبح.

ج. 2. 275

* * *

الحراسة من سطح الجامع

ولكون تونس حرسا كان الخياطون والرفاؤون يجلسون بالسطح الأعلى من شرقيّ الجامع يعملون أشغالهم هناك ويحرسون ولم تكن هنالك حينئذ بناءات مرتفعة تمنع النظر، وعلى أرباب ذلك الرفع عقود بأن لا يرفع أحد بناءه رفعا يمنع الجالس هنالك من الحرس.

ج. 2. 279

* * *

تخطي الناس في الجامع

اِتّفق أنه أمر خطيب الجامع الأعظم بتونس رجلا تخطّى الرقاب بالجلوس فتمادى ولم يجلس فقام إليه الناس حتى كادوا أن يوقعوا به وكان ذلك بقرب من قضية هداج الذي قتلته العـامة بالجَامع الأعظم حين قيل له أزل الخف من رجلك فأبى وقال : كذلك كنا ندخل به مجلس السلطان فثارت له العامة فأوقعوا به .

ج. 3. 28

* * *

الخطبة تحت السقف

وكـانت سنة جدّد سقف الجامع الأعظم بتونس وخطيبه إذّاك أبو إسحاق بن عبد الرفيع ، وغطيت المجنبة الأولى التي تحتهـا المنـبر بالحصر، وخـطب، فقام الشيخ الفقيه المشتهر بالصـلاح أبو علي القروي فأنكر عليه وأغلظ القاضي عليه القـول في الـرد. وأفضت الحال إلى أن أمر القاضي بسجن الشيخ أبي علي. وكان الشيخ يقول : الصواب مع القاضي أبي إسحاق ولا ينتهي الحال إلى أن تمنع الجمعة لأنه لو خطب

دون تغطية بحصر جاز لأنه ليس من شرط الخطبة أن تكون تحت سقف إذ لو خطب بالصحن جاز وإذ ليس من شرط الجامع أن يكون كل مسقّفا.

ج. 3. 29

* * *

زاوية الزبيدي والغناء

ولما قدم الشيخ أبو الحسن الزرقاني تونس وكان يحبّ الغناء اللائق به، أضافه الشيخ العارف الصالح الولي حسن الزبيدي بزاويته المعروفة به وعمل له الغناء وحضر الشيخ الزبيدي فقيل له في ذلك فقال : لا أدري، أما أنا فختمت ختمة وهم يغنون ولا أعرف ما كانوا يقولون.

ج. 3. 41

* * *

عيادة الطلبة لابن عَرْفة

واتفق أن شيخنا أبا عبد الله بن عرفة مرض مرضا أشرف منه على الموت ثم نقه فدخلت أنا وبعض الطلبة عليه فأخذ يحضّنا على الجد في الطلب ويقول : العلم ينفع في الدنيا

والآخرة ثم قال : غشي علي في مرضي هذا فمثلت لي طائفتان إحداهما عن يميني وهي الصغرى والأخرى عن شمالي وهي الكبرى والتي عن يميني ترجّح الإيمان بالله عز وجل والتي عن شمالي ترجّح الكفر بالله وتورد شُبها فيوفّقني الله عز وجلّ للجواب عن تلك الشُّبه بما أعرف من قواعد العقائد فلما سُرِّي عني علمت أن توفيقي لذلك إنما هو من بركة العلم وعلمت أنّ اللّه عزّ وجلّ ينفع به الدنيا والآخرة.

ج. 3. 61 ـ 62



النعي بتونس

ويتفق بتونس أن ينادى في الأسواق عند موت رجل من الصالحين فرأى ابن بزيزة وشيخنا أبو عبد الله (ابن عرفة) انه من النعي والظاهر أنه ليس منه وإن كان هو بدعة لكن لمصلحة شهود الصلاة عليه والتّبرك به وبآثاره.

ج. 3. 87



علماء لم يحجّوا

وتوفّيت جماعة منهم (شيوخ شيوخنا التونسيين) وقد نيّفوا على الستين ولم يحجّوا كالشيخ القاضي ابن اسحاق بن عبد الرفيع والشيخ ابن عبد السلام والشيخ أبي عبد الله بن سلمة. وحسن الظن بهم يجب أن تقدّر له موانع (عن الحج).

وحج شيخنا أبو عبد الله (بن عرفة) بعد أن نيف على الستين وكان يقول : لولا أني خفت أن أموت عاصيا ما حججت لما يعرف من مشقة السفر.

ج. 3. 292

* * *

العطلة والتدريس

إنه يجوز تخصيص يوم بالراحة.منه ما جرى العرف به ومضى عليه عمل الشيوخ من بطالة المدرسين يوم الجمعة ويوم الخميس ما لم يكن مشترطا في أصل التحبيس أن لا يبطل. وكان الشيخ أبو علي بن قداح بمدرسة الشمّاعين يضيف إلى الخميس والجمعة يوم الاثنين، وما ذكر عن متقدّمي الشيوخ أنهم كرهوا للحاكم تخصيص ذلك بيوم

الأولى ما عليه العرف من تخصيص يوم معين لأنه إذا خص بيوم علمه الناس فيرتاح الجميع فيه بخلاف ما إذا لم يخصّه بيوم فإنه ربما أدى إلى التعب والحيرة.

ج. 3. 383

* * *

البَركة بمكّة

وحكى الشّيخ (ابن عرفة) عن أبيه من المجاورين أنه قال : كان يقوتني بالمدينة نصف ما يقوتني بمكة. وهذا الأظهر من الحديث أعني أن البركة انما هي من الاقتيات.

ج. 3. 292

* * *

التلقي للبضائع

وانظر ما يتّفق بتونس : يضع النّصراني سلعه بالفندق خارج باب البحر فيذهب إليه بعض العطارين فيشتريها منه فينحرج الفتيا أنه إن كانت العادة أن يؤتى بعرض تلك السلع إلى السوق فهو من باب التلقّي. وكان قاضي الجماعة عمر بن عبد الرفيع كتب على العطارين عقدا أن لا يفعلوا ذلك وشهد في ذلك العقد شيخنا أبو عبد الله وغيره.

ج. 4. 180

* * *

ادّخار القوت عامين

كان ابن زيتون من متأخّري التونسيين يقول : إنّ ادّخار قوت عامين بتونس لا ينافي التوكل لفساد أعرابها وعدم أمن المطر بها.

ج. 4. 225

* * *

النهي عن المنكر

واتّفق أن مرّ سلطان إفريقية الأمير أبو عبد الله المعروف باللحياني في موكبه والنصارى خلفه ركبانا، فجعل الشيخ أبو عبد الله المتورّع القروي يناديه، ويقول : يا فقيه أبا عبد الله لا يحل لك هذا، لا يحل لك هذا، وكان السلطان المذكور ممن قرأ مع الشيخ المذكور فلذلك ناداه بما ذكر.

ج. 4. 355

* * *

هبة لطفل

وكان الشيخ المصنف المحصّل أبو عبد الله بن راشد القفصي أول شارح لكتاب ابن الحاجب الفرعي لما وضع كتابه المسمى "بالمذهب في ضبط مسائل المذهب" أو كتابه المسمى "بالفائق في علم الوثائق" وهبه لولده الصغير وكتب على ظهره بخطّه : أشهد على نفسه مؤلف هذا الكتاب أنه وهبه لولده الصغير فلان في حجره.

ج. 4. 332

* * *

فوائد التأليف

وكان شيخنا أبو عبد الله بن عرفة يقول : إنما تدخل التآليف في ذلك (الانتفاع بعلمه بعده يكون ببثّه لمن يحمله عنه أو بايداعه التأليف) إذا اشتملت على فوائد زائدة وإلا فذلك تخسير للكاغد، ويعني بالفائدة الزائدة على ما في الكتب السابقة عليه. وإما إذا لم يشتمل التأليف إلا على نقل ما في الكتب المتقدّمة فهو الذي قال فيه إنه تخسير للكاغد وهكذا كان يقول في حضور مجالس التدريس وأنه إذا لم يكن في مجلس الدرس التقاط زيادة من الشيخ فلا فائدة في حضور

مجلسه بل الأولى لمن حصلت له معرفة الاصطلاح والقدرة على فهم ما في الكتب أن ينقطع لنفسه ويلازم النظر. وضمّن ذلك في أبيات نظمها وهي قوله :

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة
وتقرير إيضاح لمشكل صورة
وعَزو غريب النّقل أو حلّ مقفَل
أو إشكالٍ أبدْته نتيجةُ فكرة
فدع سعيه وآنظر لنفسك وآجتهد
ولا تتركن فالتّرك أقبح خلّة

وكنت قلت في جواب أبياته هذه :

قسما بمن أولاك أرفع رتبة وزان بك الدنيا بأكمل زينة
لمجلسك الأعلى كفيل بكلّها على حسن ماعنها المجالس خلّت
فأبقاك من رقّاك للخلق رحمة وللدّين سيفا قاطعا كل بدعة

وإني في قسمي هذا لَبَار، ولقد كنت أقيّد من زوائد إلقائه وفوائد إبدائه على الدّول الخمس التي كانت تقرأ بمجلسه من التفسير والحديث، والدّول الثلاثة التي من "التهذيب" نحو الورقتين كل يوم مما ليس في كتاب، والله المسؤول أن يقدّس روحه فلقد كان الغاية، وشاهِدُ ذلك ما اشتملت علهي تآليفه من ذلـك ونـاهيك بمختصره في الفقـه الـذي ما وضع في الاسلام مثله لضبطه فيه المذهب مسائل وأقوالا مع الزيادة المكمله والتنبيه على المواضع المشكلة وتعريف الحقائق الشرعية.

ج. 4. 345 ـ 347

طفلتان تسرقان القمح

وكان شيخنا أبو عبد الله (بن عرفة) يحكى أنه اتفق في داره أن جاءت طفلتان تسرقان القمح من المسترق فزلق بهما القرمود فسقطتا فماتتا، قال : وكنت غائبا بالموضع المسمّى بالجزيرة وانتشر الخبر فرفع مؤدى الأمر إلى القاضي أبي اسحاق بن عبد الرفيع فأمر باخراجهما وأهدر دمهما.

النّفي من تونس

وكان العرف في النّفي من تونس هو أن ينفي من عمالة الأمير النافي فكان ينفي منها إلى المشرق، وكان الشيخ ابن عبد السلام يحكي أن إنسانا كان يضرب على خطوط الشهود بتونس فعوقب ونُفي إلى المشرق، فبعث أهل المشرق : لا يحل أن تبعثوا إلينا بمثل هذا لأنه من أهل الفساد فأجيبوا بأن مفسدته ليست بمتحققّة الوقوع عندكم فإنه لا يعرف شهودكم ولا خطوطهم إلا بعد مدة وعسر، وقد لا يحيا إليها فلم نبعث إليكم بمفسدة محقّقة.

ج. 4. 410

* * *

نميمة العلماء

قال شيخنا أبو عبد الله بن عرفة : ذهب والدي إلى ابن عبد السلام يستشيره فيمن أقرأ عليه قال له : عليك بابن سلامة فإن ميعاده نقي وإيّاك فلانا فإني سمعت عنه وعن ميعاده شرّا. قال شيخنا المذكور : فتحقيق الباب عندي أن من يكون بحيث العدالة وفي مظنة من يعرض له أن يعدل أو يجرح فلا بأس بسماعه الكلام في الناس لأن بذلك يصل إلى التعديل والتجريح لكن بشرط ان لا يسمع إلا بهذه النية وبشرط أن لا يكون الناقل له ذلك قصده التفكّه في أعراض الناس وهو في هذا بمنزلة القاضي لسماعه في الناس، ومن لا يكون بهذه الحيثية فلا يحل له أن يسمع الكلام في أحد.

ج. 4. 424

* * *

تأديب ابن تكرومة

كان في أيام وصول أمير المغرب أبي الحسن المريني تونس رجل يعرف بان تكرومة شديد الجراءة والإذاية وحكم بأدبه فعمل فيه مجلس في قدر ما يستحق قال الشيخ (ابن عرفة) : ولو زيد في أدبه على ثلاثمائة سوط لكان أهلا لذلك.

ج. 4. 477

* * *

محمد الآجمي والقضاء

ولما تشوور فيمن يلي قضاء الأنكحة بتونس تسبّب الفقيه أبو محمد الآجمي وكان يشار إليه بالصلاح تسبّبا ظاهرا حتى وليه. إن لم يقبله ضاعت الحقوق أو يليه من لا تحلّ ولايته فوجب عليه طلبه حسب المازري.

ج. 5. ص 4

* * *

حيلة ابن تافراجين

كان الأمير أبو يحيى سلطان إفريقية في أواسط القرن الثامن، كتب العهد لولده أحمد الذي بقفصة، فلما توفي الأمير أو يحيى وكان حاجبه حينئذ عبد الله بن تافراجين، فاحضر قاضي الجماعة أبا عبد الله بن عبد السلام وقاضي الأنكحة أبا محمد الآجمي فأمرهما أن يبايعا عمرا ولد الأمير أبي يحيى المذكور، فاعتذرا وقالا : كيف نبايعه ونحن قد شهدنا في بيعة أخيه أحمد والتزمناها. وكان الحاجب المذكور نبيلا فقال للقاضيين حين رأى امتناعهما : آدخلا دار السلطان واشتغلا بغسله وتكفينه، فلما دخلا موضع غسله، أحضر الحاجب المذكور النّاس وأهل الحلّ والعقد وأمرهم أن يبايعوا عمرا

فبايعوا فلما خرج القاضيان وجدا البيعة قد حصلت وكان في انتظار أحمد المذكور المكتوب له العهد وهو بقفصة خوف الفتنة فبايع القاضيان حينئذ، وكان الشيخ يستصوب فطنة الحاجب المذكور في فعله ونبله لأنه جار على ما ذكر القاضي، ويستصوب أيضا امتناع القاضيين أولا لما ذكراه وبيعتهما ثانيا لانعقاد البيعة بغيرهما. قال الشيخ (ابن عرفة) : وأخبرني بكيفية هذه القصة الحاجب المذكور.

ج. 5. 78

* * *

قاضي الأنحكة وقاضي الجماعة

انظر ما جرى العرف به بتونس بتقديم قاض للأنحكة وقاض لما سوى ذلك ويسمّى قاضي الجماعة، فإنه جرى الأمر من قبل الأمراء أن نظر قاضي الجماعة عام حتى على قاضي الأنحكة وانه كالنّائب عن قاضي الجماعة، وكان اتّفق أن كان قاضي الجماعة أبو اسحق بن عبد الرفيع وكان قاضي الأنكحة ابن عبد السلام، فلم يوافق قاضي الجماعة في بعض الأمور وأراد أن يستقلّ بها بنفسه فأبى ذلك عليه قاضي الجماعة ابن عبد الرفيع وأثبت رسما أن الأمر جرى بتونس من قبل الأمراء أن قاضي الأنكحة من تحت نظر قاضي الجماعة وانه لا يستقلّ

بنفسه ولكنه كان لابن عبد السلام وجاهة من قبل السّلطنة فأمرهما الخليفة حينئذ وهو الأمير أبو بكر أن يستقل كل واحد منهما بما النظر إليه فيه، ولما أريد تقديم بعض الناس لقضاء الأنكحة ـ وأظنه الفقيه أبا العباس بن معاوية ـ فشرط أن لا يكون لقاضي الجماعة عليه نظر. وفائدة ما ذكر أنه إذا وقعت نازلة وكانت من مسائل الأنكحة فأراد كل منهما أن يحكم فيها فعلى أنه كالنائب، فلقاضي الجماعة أن يستقل بالحكم فيها وينزعها من يده، وكان الشيخ(ابن عرفة)يقول : الصواب ان الأمر في ذلك ينبني على ما يرسمه الإمام ويجعله لكل منهما.

ج. 5. 171

* * *

السلطان أبو يحيى في زاوية الزّبيدي

دخل الأمير أبو يحيى سلطان إفريقية إلى زاوية الزّبيدي ليتبرك به فلم يجد الشيخ الزبيدي الكبير ووجد ابن أخيه الفقيه الإمام بها. فقيل للإمام : قد غاب عمك بالسّانية فباشر أنت السلطان فلقيه. فقال له السلطان : آدع الله لي. فقال : وما عسى دعائي لك ؟ قد سبقت لك دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له الحديث "اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشقّ عليهم فاشقق عليه"

ج 5. 173

* * *

الغزوة الصليبية الثامنة على تونس

لما نزلت النّصارى تونس أيام الأمير ابي عبد الله المستنصر وأخذوا بلاد قرطاجنة أول نزولهم وانزلوا محلاتهم بعساكرها بالموضع المسمى "بالمنصف" بين قرطاجنة وتونس، واستنفر الأمير أبو عبد الله أهل إفريقية وكتب إليهم بقوله تعالى : "آنفروا خفافا وثقالا" الآية، فأجاب الجميع ونزلوا بتونس وحواليها والنصارى بمحلاتهم بالموضع المذكور، ودام القتال عدة اشهر. قال بعض من أرّخ للكائنة إنه اجتمع في ذلك الحرب من الخلق ما لم يجتمع في حرب منذ خلق الله سبحانه آدم عليه السلام، ودام ذلك حتى اتفق أن مات الاذفونس ملك النصارى، فانصرفت النصارى لموته، واختلف في سبب موته فقال الأديب جمعة وهو أحد من أرّخ للكائنة : الأصح مما قيل في سبب موته أنه مات بسهم أصابه.

ج 5. 264

* * *

منع إمامة القضاة بتونس

وذكر الشيخ أن العرف بتونس القديم والحديث منع قاضي الجماعة والأنكحة الامامة بجامعها الأعظم قال : وسمعت

من يعلله بأنـه في مظنة أن لا يرضى به الخصوم فيؤدي إلى إمامة الرجل من هو له كاره.

ج. 5. 3

* * *

انهزام أبي الحسن المريني قرب القيروان

لما قدم الأمير أبو الحسن ملك المغرب إلى افريقية وانتزعها من أيدي الموحّدين وكان من جملة الجيش الذي قدم به بنو عبد الوادي، واجتمعت بعد ذلك أعراب افريقية على حربه وقتاله، فلما اصطفّ الجمعان غدرت بنو عبد الوادي الأمير أبا الحسن فتركوه وخرجوا من صفه وخلطوا على أعراب إفريقية، فكان سبب انهزام الأمير أبي الحسن وأخذ جميع محلاتهم حتى لم ينـج إلا الأمير المذكور بنفسه، ودخل بلد القيروان ونشأ بسبب ذلك من قتل النفوس وانتهاب الأموال وأخذ الأموال وغلظة الأعراب لتقوّيهم بما أخذوا من محلاته ما تضيق بطون الكتب عن كتبه.

ج. 5. 52

* * *

منع سفر يهودي بالكتب

وكان يهودي اشترى شيئا من كتب المنطق وأراد السفر بها لأرض الحرب فأفتى الشيخ بمنعه من ذلك حتى يزال ما بها من التّسمية والتصلية .

ج . 5 . 216 ـ 217

* * *

الأمن بتونس

ولم يزل الشيوخ يحكون عن كثرة ما كان بتونس من الخير أنه بقي دينار ملقى بأحد (الطرق) حوالي الجامع الأعظم وغالب ظني أنه بطريق العطارين مدة لا يرفعه أحد ، ثم بعد ذلك لم يوجد فقال الناس : اليوم دخل بلدنا غريب . وحين كانت قاعدة مملكة الموحّدين بمراكش ، وكان القضاة إنما يأتون لتونس منها فاتفق أن قدم إلينا قاض من مراكش فجلس للحكم فبقي أياما لا يأتيه أحد من الخصوم فظن أن الناس لم يرضوا به ثم قدم إليه يوما خصمان من أهل سوق الجبّة ، فقال أحدهما للآخر : أصلحك الله إن هذا شريكي وقد باع جبّة من العرب وأنا لا أستحلّ دراهم العرب . فحينئذ علم القاضي أن عدم اتيان الخصوم إليه إنما هو لتناصفهم واتباعهم الحق .

ج . 5 . ص 31

* * *

اسم ابن زيتون

لما دخل الشيخ الفقيه المحصل أبو القاسم بن زيتون على الأمير أبي عبد الله المنتصر سلطان إفريقية، سأله عن اسمه فعرفه. سأل: كيف هذا وقد صح حديث: تسمّوا باسمي ولا تكنّوا بكنيتي. فقال: إنما تسميّت بكنيته. واستحسن جوابه بهذا بعض أهل عصره من الشيوخ شيوخ شيوخنا.

ج. 5. 416

* * *

ابن زيتون والعصافير

وكان الشيخ أبو القاسم بن زيتون رضي الله عنه يحبس الأطيار في القفص فإذا انقضى لها سنة أخرجها وسرّحها.

ج. 5. 424

* * *

بعثة إلى الأمير ابن تاشفين

اتفق أن بعث الأمير أبو يحي سلطان افريقية في أواسط المائة الثامنة الشيخ الفقيه القاضي النفزاوي وآخر معه إلى

الأمير ابن تاشفين سلطان تلمسان فوجداه جالسا على بساط من حرير، فأخذ أحد الشيخين حرامه ففرشه على ذلك البساط وجلس عليه وضم الآخر البساط وجلس على الأرض وفعل الأول أخف بالنسبة إلى عدم إيحاش السلطان.

ج. 5. 370

* * *

بدعة النساء بتونس

أبين شيء هو فيما أحدثه النساء بتونس في أول المائة الثامنة من عرض الكمّ الذي إذا رفعته بان لحمها لمن لا يحل له النظر إليها، ولا ينبغي للرجل أن يفعل ذلك لأهل بيته. قال الشيخ (ابن عرفة) رحمه الله: دخلت على بعض الشيوخ وهو يفصّل شوار ابنته كذلك، فاعتذر لي بأن أهله حملوه على ذلك وهو عذر لا ينجي.

ج. 5. 411

* * *

طفولة الشيخ ابن عرفة

وكان الشيخ رضي الله عنه يحكي عن أيام صغره أنه كان بجوارهم رجل معروف باصابة العين وكان أهلي يخبؤوني منه، وكان الشيخ في صغره من حسن الصورة والجمال ما هو معروف وكان يحدّث عمن يثق به أنه كان ببجاية رجل مشهور بإصابة العين فلما رجع الأمير أبو الحسن سلطان المغرب قافلا عن إفريقية إلى المغرب في الأسطول المعروف وهي جماعة من الأجفان، وكان ببجاية حينئذ أمير من قبل الموحدين فأمره هذا الأمير أن ينظر إلى ذلك الأسطول ويعينه ففعل فكان من أمر الأسطول واتلاف أكثره ما كان.

ج. 6. 5

* * *

الأبي يتوسط للطلبة لدى الشيخ (ابن عرفة)

وكان وقع الوباء بتونس سنة 796 وأنا ساكن بمدرسة التوفيق ومدرّسها الشيخ أبو عبد الله محمد بن عرفة، وأول من مات بها أحد الطلبة الساكنين بها، وكنا شرعنا في قراءة الصيف فامتنع الشيخ من المجيء فأرسلني إليه أهلها وكانوا

طلبة خيارا متطلبين متديّنين، وكنت أحدثهم سنا، فأتيت الشيخ فعرضت له المجيء فقال : أليس الوباء قد وقع عندكم، وذكر لي أحاديث الباب في النهي عن القدوم وحديث "فرّ من المجذوم فرارك من الأسد" ثم انه سخره الله تعالى وأتى وجدّ في الاقراء في ذلك العام.

ج. 6. 33

* * *

رواية حلم للسلطان المريني

لما قدم الأمير أبو الحسن (المريني) سلطان المغرب إلى إفريقية في أواسط المائة الثامنة وملكها وكان خلّف ولده أبا عنان بفاس فقام بها ودعا لنفسه، فجاء بعض من يقرأ القرآن ولا يحسن غيره لمجلس أبي الحسن بتونس وبه صدر من الفقهاء : ابن عبد السلام والسطّي وغيرهما. فقال ذلك القارئ للسلطان يبشّره في ظنه : أيّدكم الله رأيت البارحة في المنام أن في رِجْل الأمير أبي عنان قيدا. فسكت الفقهاء سكوت من يعرف الحديث وتأويله.

ج. 6. 77

* * *

رجل يتخرّص

يذكر أن الشيخ الفقيه ابن البراء كان يقرئ في مسجد القبة من توس فأتاه رجل فقال له : رأيت البارحة النبي صلى الله عليه وسلم وقال إلي : قل لفلان يعطيك جبّة . فقال له الفقيه : قال لي أنا في اليقظة لا أعطيك تسيئا . فذهب الرحل فدخل على الرجل الصالح ابي عبد الله المشتهر بالمغربي في موضعه القريب من المسجد المذكور فأعطاه، فقيل له . ان الرجل يتخرص فقال الشيخ : لو علمت أنه محق أعطيته الدنيا .

ج . 6 . 90

* * *

تشويش الناس

قال الشيخ (ابن عرفة) : كنت يوما عند ابن عبد السلام فأتاه رجل فعرفه أن أربعة من الفقراء قدموا وأخبروا أنهم رأوا بالجبل الأحمر الذي بطرف أجنّة تونس أربعة قبور للصحابة فقال له : أين أولئك الفقراء قال : ذهبوا قال : لو ظفرت بهم لسجنتهم لأنهم أخبروا عن غير معلوم يوقع تشويشا .

ج 6 . 165

* * *

الخضر بتونس

وقضية ابن العكة مشهورة بتونس وهي أن صبيّا صغيرا كان ملتوي الرجلين ظهورهما تلي الأرض فلعب مع الصبيان في الجامع فجلس يبكي في جهة من الصحن فأتاه رجل فسأله ما يبكيك فشكا له بحالة رجليه، وأن الصّبيان استطالوا عليه فقال له : أرنيها فأراه، فمسح عليهما فبرىء وقام يلعب قال الشيخ رحمه الله : ولّما قدم الأمير أبو الحسن ملك المغرب عام 748 وملك تونس، وكان شيخنا ابن عبد السلام وغيره من التونسيين وشيوخ المغرب الذين قدم بهم يعملون له الميعاد بالقصبة يجلس واحد منهم في كل يوم . اتفق أن ذكرت قضية ابن العكّة في مجلسه ذلك فأمرني أن نأتي بالصبي وخصّني بذلك لأني كنت أصغر أهل المجلس فخرجت وأتيت به من الرّبض، فسأله فأخبره فأحسن إليه وصرفه قلت : وأخبرني رجل من أهل الصلاح كان يحضر درس مجلس الشيخ (ابن عرفة) معنا حين سمع الشيخ يحكي هذه الحكاية فقال لي : أنا كنت أحد الصبيان الذين يلعبون مع ابن العكّة فقلت له : عرّفني كيف كانت القضية فقال : جاءني ابن العكّة وقال لي : رأيت رجلّي كيف رجعتا، فقلت له : من عمل لك هذا ؟ قال : ذلك الرجل . فنظرت إلى رجل خارج من باب الجامع عليه جبّة صوف واحرام صوف قد أعطانا بظهره وهو حارج، وكان يرون أنه الخضر عليه السلام .

ج . 6 . 173

* * *

الخضر بتونس

وذكر الشيخ (ابن عرفة) أيضا أن الشيخ الفقيه الصالح أبا الحسن المنتصر كان يقول : يحضر كل يوم في المقصورة الشرقية في أول قراءة السبع ، فإذا كثر الناس قام

وحكى الشيخ أيضا أن رجلا كان يبيع التمر بأسفل شرقي الجامع رطلين بدرهم فوقف عليه انسان فسأله كيف يبيع ، فأخبره فسأله أن يزيد نصف رطل فأبى . فأكثر مراجعته في ذلك فقال له صاحب التمر : تنصرف وإلا أخبر الناس أنك الخضر ، فانصرف وتركه .

ج . 6 . 172 ـ 173

* * *

الصدقة عن الآباء

قال لي بعض أصحاب الشيخ أبي اسحاق الجبنياني : دخلت عليه في مرضه فرأيت بين يديه حبة إجّاص موضوعة على الرمل فرآني أنظر إليها ، فقال لي : لو أهدي لك طبق من هذا ما كنت تصنع به ؟ قلت : آكل وأطعم والدتي ، قال : فأبوك قلت : مات قال : فإذا مات انقطع برّه ، ما كنت تتحفه به في حياته ، تصدق به عنه يصل إليه . بركته في قبره .

ج . 7 . 9

* * *

سحنون وابن أبي الجواد

كان سحنون أيام قضائه سجن ابن أبي الجواد في دين ترتّب عليه وضربه بالسوط مرة بعد مرة واتفق ان مات ابن أبي الجواد من الضرب، فكان سحنون يرى في منامه ابن أبي الجواد بما يسوءه فإذا استيقظ يقول : ما لي ولابن أبي الجواد. فظاهر هذا ان سحنونا قاله بسبب تعذيبه مع انه عذّبه بحق، ولذا كان يقول : إذا ذكر له الحق قتله.

وأجاب بعضهم وأظنه الشيخ ابن عبد السلام بأن هذا إنما هو من حكاية ابن الرقيق المؤرخ وهو ليس بثقة لأنه كان شارب خمر متخلفا فلا يقبل خبره، والحكاية وإن ذكرها بعض مؤرخي الأندلس فلعله نقلها من ابن الرقيق.

ج. 7. ص 54 ـ 55

* * *

الأجنّة بتونس

ومن أعظم (الأذى) المساقي المحدثة في طرف الأجنّة وتجريتها على سطح الطريق (. . .) وكان الشيخ (ابن عرفة) رضي الله عنه وصف له حائط بالحسن فاشتري له قال : فخرجت لأراه فوجدت أعظم حسنه في المساقي التي

تدخـل إليه فأمـرت ببيعـه، قيل له : قد بعت المساقي مع الحائط فقال : إنما يقع البيع على الحائط لا عليه وعلى المساقي.

ج. 7 ـ 57

* * *

رؤيـــا

كان من حلقة الشيخ وأصحابنا الطلبة رجل يسمّى عرفة وكان متطلبا وناسكا وهو حينئذ كهل وأنا في سن ما بعد البلوغ بيسير ساكن في مدرسة التوفيق فاستأذن علي فأذنت له فدخل فقال لي : قال صلى الله عليه وسلم : لا تخبر برؤياك إلا من تحب، وأنا لي فيك محبة، وقد رأيت الآن رؤيا جئت أخبرك بها، فشكـرت له ذلـك فقـال لي : دخلت الساعة المسجد لأصلي الضحى فلم أجد في نفسي نشاطا للصلاة، فجلست مستندا أقرأ القرآن فنمت فرأيت في نومتي تلك الباري تبارك وتعالى ورأيت الجنة على ما وصفها به فقال لي : يا عرفة مدّ بصرك، وانظر فنظرت ثم قلت : يا رب هل لي في هذا الذي أرى نصيب، قال : نعم، مدّ بصرك وانظر، قلت : يا رب لم أعطيتني هذا وأنا على ما تعلم من مخالفتي قال بصبرك على ولدك حين مات. ثم بعد مدة لقينا صاحبنا عرفة المذكور فقال

لي : إن الرؤيا تكرّرت علـيّ . فقلت : ألي في هذا نصيب قال : أليس قد قلنا لك بعد .

ج . 7 . ص 67

* * *

ابن زيتون والعصافير

حكى ابن عبد السلام أن ابن زيتون كان يتّخذ العصافير في الأقفاص لسماع نغماتها فإذا مضت لها ـ أظنّه قال ستة أشهر ـ أطلقها .

ج . 7 . ص 58

* * *

الصلاة بالملف

وكان الشيخ الفقيه الولي أبو محمد المرجاني لا يصلي بالملف كما يذكـر أنهم يرطّبـونه بشحم الخنزير، وآستدلّ على ذلك بالإبرة إذا مسكت فيه فإنها لا تصدأ . . .

وكان الشيخ (ابن عرفة) يقول : ترك الصلاة به انما هو ورع (. . .)

وكـــان الســـطّي وابن عبـــد الســـلام يصليان بالملف، قال : وأنا أصلي به في الدار ويمنعني مس الصلاة به في الجامع خوف أن يأتم به من يكره الصلاة به، قيل : وإذا غسل بالماء الحار فإنه يطهر والله أعلم.

ج. 7 ـ 106

* * *

استشكال في مجلس ابن عبد السلام

استشكـل الشيخ وأهل مجلسه كلام القشيري (. . .) ومضى المجلس على استشكال ذلك.

ج. 7. ص 115

* * *

دعاء الشيخ ابن عرفة

كان الشيخ إماما بالجامع الأعظم من تونس ولداره بعد عنه فذكر أنه يقول عند خروجه للجامع : أعوذ بكلمات الله التّـــامـات من شر ما خلق قال : لأسلم من أذى الـطريق وعورته. وشرط نفع ذلك النيّة والحضور.

ج. 7. ص 133

* * *

منزلة المرأة بتونس

ويذكر عن العوفي انه صاغ لابنته مكحلة من فضة وقال : علمتني على ذلك أمها. ويذكر أن الشيخ الفقيه الصالح الولي أبا الحسن المنتصر زوج ابنته لبعض الأغنياء ولم يفعل لها شيئا من ذلك، وكان الزوج يوسع عليها في النفقة فكان الشيخ المنتصر يقول : أفسد على ابنتي.

والعوفي المذكور ليس المؤلف بل أحد الفقهاء التونسيين المتأخرين في طبقة شيوخ ابن عبد السلام.

ج. 7. 224

* * *

ابن عرفة يتحدث عن والده

ذكر الشيخ عن والده : قال خرجت من عند الشيخ خليل إمام الحرم وتركت الباب عليه مفتوحا، فعتبني على ذلك فقلت : تركتك تقرأ يقظانا، فإني سمعتك تقرأ فقال : لا تغتر بقراءتي فأنا أقرأ وأنا نائم.

ج. 7. 228

* * *

حثي التراب في وجوه المدّاحين

كان الشيخ أبو اسحاق الجبنياني لا تأخذه في الله لومة لائم على ما هو عليه من العلم والزّهد اذ أتاه يوما حاكم صفاقس وأبو بكر بن حجاج، وكان له من السلطان مكان مكين وجلس بينهما رجل ضعيف العقل فقال للشيخ أبي اسحاق : يا أبا اسحاق هذا الحاكم فيه وفيه يثني عليه، وهذا أبو بكر بن حجّاج فيه وفيه، فقال الشيخ : جاء في الحديث إذا مُدح الفاسق غضب الله وجاء في حديث آخر : آحثوا التراب في وجوه المدّاحين فحثى على الرجل ثلاث حثيات مما بين أيديهم وأصاب من ذلك لحية ابن حجاج فقاما.

ج. 7. 305

* * *

ترجمة العلماء التونسيين الوارد ذكرهم في النتــف

البرزلي : أبو القاسم بن أحمد بن اسماعيل البلوي القيرواني . كان مفتيا وخطيبا بجامع الزيتونة مدة ربع قرن . عنوان كتابه : جامع مسائل الاحكام لما نزل من القضايا بالمفتيين والحكام . توفي سنة 841 هـ

ابن بزيزة : عبد العزيز بن أحمد التيمي القرشي أبو فارس من الفقهاء وعلماء التفسير والكلام . مؤلف كتاب " الأنوار في فضل القرآن " والدعاء والاستغفار وايضاح السبيل إلى مناجي التأويل وتفسير للقرآن الكريم ، والإسعاد في مقاصد الارشاد وشروح عديدة . ولد سنة 616 وتوفي سنة 662 هـ

ابن راشد : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن راشد القفصي ، له رحلة إلى المشرق وتكون بتونس والاسكندرية . من تآليفه " الفائق في معرفة الاحكام والوثائق " في سبعة أسفار . والمذهب في ضبط مسائل المذهب والمرتبة العليا في تعبير الرؤيا ولد بقفصة حوالي سنة 650 هـ وتوفي سنة 635 هـ .

الـرقيق : ابـراهيم بن القاسم القيرواني ابو اسحاق ولد بالقيروان وتوفي بها حوالي سنة 425 هـ . كان كاتبا لأمراء صنهاجة بالقيروان ـ من مؤلفاته : الأغاني، الاختصار البارع للتـاريخ الجـامـع، تاريخ إفريقية والمغرب، فتوح افريقية، قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور الخ . .

الزبيدي : أبو عبد الله محمد بن الحسين الزبيدي، نسبته إلى احدى قرى الساحل قرب المهدية. كان عالما مفتيا متزهّدا أدبيا لغويا. توفي سنة 749 هـ .

ابن زيتون : أبو الفضل أبو القاسم بن أبي بكر اليمني، مدرّس شهير، ولد بتونس سنة 620 هـ وتوفي بها سنة 691 هـ . له رحلتان إلى المشرق، ودرس خاصة على يدي عز الـدين بن عبد السلام، ودرس بالمدرسة الفاضلية ومدرسة الصاحب بن شكر بالقاهرة. عيّن قاضي القضاة بتونس.

ابن عبـد الـرفيـع : أبـو اسحاق ابراهيم الربعي. ولد بتـونس سنـة 639 هـ وتوفي بها سنة 773 هـ . كان مدرّسا وقاضيا بإفريقية وخطيبا بجامع الزيتونة وقاضيا للجماعة بتونس. من مؤلفاته "معين الحكام على القضايا والأحكام" .

ابن عبد السلام : أبو عبد الله محمد المنستيري الهواري التونسي (676 هـ ـ 749 هـ) أستاذ ابن خلدون وابن عرفة. من تآليفه "تنبيه الطالب لفهم ألفاظ جامع الأمهات

لابن الحاجب" تولى الخطابة بجامع الزيتونة والتدريس به. ثم قلد قضاء الجماعة سنة 734.

ابن عرْفة : أبو عبد الله محمد بن محمد الورغمي (716 ـ 803 هـ). كان اماما وخطيبا ومفتيا بجامع الزيتونة أكثر من نصف قرن. تخرج على يديه أجيال من العلماء. من تآليفه : المختصر الفقهي والحدود في التعاريف الفقهية وتفسير للقرآن الكريم. من أشهر فقهاء تونس في عصره وعلمائها ينطق اسمه بتسكين الراء، لقولة مشهورة : من قال ابن عرفة ما عرفه. أي من قال ابن عرفة بفتح الراء.

ابن اللحياني : أبو يحيى زكرياء الحفصي، خليفة تونس توفي سنة 727 هـ انظر عنه الجزء الأول من اطروحتنا عن الحياة الأدبية في العهد الحفصي.

ابن هارون : أبو عبد الله محمد الكناني التونسي، امام في الفقه وعلم الكلام والعربية. كان استاذ ابن عرفة. له تآليف عديدة. منها اختصارات للمدونة والتهذيب للبراذعي. توفي سنة 720 هـ

أبو يحيى أبو بكر : المتوكل على الله، من مشاهير خلفاء الدولة الحفصية. (692 ـ 747هـ).

"الاصابة فيمن غـزا المغرب من الصحابـة"

لمحمد أبو راس بن احمد بن الناصر

هو من كتب التاريخ التي تتعلق بالمغرب عامة منذ الفتح الاسلامي قد اعتمد فيه صاحبه على مراجع عديدة : أكمل بعضها ببعض وعلق عليها، ونقد بعض الأخبار الواردة فيها، وقارن بينها، ولئن يبدو من العنوان ان الكتاب في التراجم فهو يلخص لنـا بعض الأحداث التاريخية المتعلقة بفتح المغرب فيفيدنا عن أعمال الفاتحين من الصحابة رضي الله عنهم لا في افريقية وحدها ولكن في كامل بلاد المغرب من برقة إلى المحيط.

ولم يقم المؤلف بالجمع والتصنيف فقط وإنما أورد بعض آرائه وما سمعه من أهالي البلدان التي زارها وما لاحظه بعينه وما يعرفه من معلومات تهم خاصة بلده الجزائر.

والمؤلف هو : محمـد بن أحمـد بن عبـد القادر بن ناصر الـراشـدي الغريسي المعسكري، ولقبه الذي اشتهر به هو ابوراس. عاش في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر إذ توفي سنة 1238 هـ الموافقة لسنة 1822 م ولد بأم

عسكر بالجزائر ودرس في مسقط رأسه وفي مازونة أيضا على علماء عصره وارتحل إلى تونس وزار بها مدنا عديدة وأقام في جربة أخذ عن علماء الزيتونة كالشيخ ابراهيم الرياحي ثم ارتحل إلى مصر وأخذ عنُ علماء الأزهر نذكر منهما المرتضى الزبيدي والشرقاوي وقد رجع لمسقط رأسه بعد ذلك بإجازات كثيرة وكتب كتابين في ذلك "لبّ أفياخي في ذكر أشياخي" و"السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد المرتضى" وقد تعمق في دراسة المذاهب الاسلامية الأربعة والمذهب الخارجي إذ أنه أقام بجربة لدراسة معتقدات الخوارج وكتب كتابا عن جربة عنوانه "مؤنس الأحبة في أخبار جربة" الذي نشر في تونس سنة 1960، واختار أبوراس من بين هذه المذاهب المذهب المالكي وتعمّق خاصة في دراسة مختصر خليل بن اسحق واختصر مسائله، وهو ينقل في كتابه "الاصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة" عن أبي عبد الله المواق المالكي في شرحه للشيخ خليل.

واشتهر أبوراس بغزارة تآليفه التي تبلغ الخمسين مؤلفا في التاريخ والتفسير والحديث والأدب والفقه والنسب والتصوف نذكر من بينها :

كتاب "الزمردة الوردية في الملوك السعدية" وهو في تاريخ الملوك السعديين بالمغرب الأقصى.

وكتاب "ذيل روض القرطاس، في ملوك بني وطاس" وهو أثر ضائع لا أثر له.

ولـه تخريج أحـاديث دلائل الخيرات "في علم الحديث وتفسير القرآن الكريم.

وشرح مقامات الحريري في اللغة والأدب إلى غير ذلك من التآليف.

ولابـد من التعليق على تحقيق كتـاب "مؤنس الأحبة في أخبار جربة" وقد طبع بتونس في سنة 1960 بتحقيق محمد المرزوقي، لكن المحقّق ظنّ أن هذا الكتاب من تأليف محمد بوراس آخر ونعته بالجربي.

وقـد قدّم الكتـاب المرحوم حسن عبد الوهاب منوّها به ملاحظا أهميته للاطلاع على أحوال جربة في شتّى النواحي الجغرافية والتاريخية والسياسيّة والحربيّة ولمعرفة تراجم مختصرة لبعض النابغين من أبنائها في العلم والادارة.

إلا أننا نلاحظ بأسف أن المحقّق قد حذف نصف الكتاب المتمثل في المقدمة بدعوى أنه لا قيمة لها من الناحية التاريخية وأن محتـواهـا موجـود في كتب عديدة متـداولة ولا صلة لها بالكتـاب الـذي هو خاص بجـزيرة جربة وقد رأى المحقّق الاستغنـاء عنهـا وعوّضها بتمهيد جديد وليته أثبت ما دبّج

المؤلف بيمينه إذن لتسنى لنا المقارنة بين النسخة المطبوعة وبين ما ورد في "الاصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة".

ونحن لم نفهم سبب عدم اطمئنانه إلى أنّ المؤلف الحقيقي "لمؤنس الأحبّة" هو أبوراس أحمد النّاصر ذلك لأنه لم يتمكن من معرفة هذا الأخير ولا من معرفة كتابه هذا عن الصحابة حسب قوله "وان كنّا لا نعرف هذا الكتاب" بل هو خلط به شخصا آخر إسمه "أحمد الناصر الدّرعي المغربي صاحب الرحلة. وقد جزم المحقّق بدون دليل مقنع أنّ المؤلف من مواليد جربة، والحجّة التي أوردها هي: المعلومات الدقيقة التي نجدها في كتابه عن المعالم والمزارات واسماء أحيائها وتقسيماتها ومعرفته بالمصطلحات الخاصة للعمّال البحريين وبالأسماء البربرية إلى غير ذلك، ويكفي أن نردّ على هذه الحجة بقولنا إنّ محمّد أبوراس قد زار الجزيرة واطّلع على أحوالها وسجل ما شاهد وما روي له بكل دقة وحرص على الضبط.

ومما يثبت أن المؤلف هو محمد أبوراس أحمد الناصر أن المحقّق استنتج أن المؤلف ألف كتابه سنة 1211 هـ وأنّه عاش بعد سنة 1223 هـ / 1808 م، وإذا علمنا أن محمد أبو راس قد توفّي سنة 1238 هـ وأنه عاش في نفس القرن فلا يمكن أن يكون غيره صاحب الكتاب: "مؤنس الأحبة في أخبار جربة".

ولنعــد إلى كتـــاب "الاصـــابـة فيمن غزا المغـرب من الصّحّابة" يقدّم لنا محمد أبوراس كتابه بعد الدّيباجة قائلا :

"أمّا بعد، فيقول من كثرت ذنوبه وفضحته عيوبه، المقلّ القاصر، محمد أبوراس بن أحمد بن الناصر كلأه الله ورعاه، وأحمد قصده وأنجح مسعاه، أن أحقّ ما تطمح إليه النفوس ويكــون لها به الخلاص في اليوم العبوس علم الأخبار التي تصلح لمسامرة الجليس، ويكون بها نعم الأنيس ولا سيما سير الصحابة أهل العلم والحزم والإنابة، وخصوصا من غزا منهم المغرب ونأى عن أوطانه، وتغرّب، وحالت بينه وبينهم بحار ومفاوز وقفار، وخاطر بنفسه ونبذ وراء ظهره مالا وولدا، وقرع لامتثــال أمــره من البرابرة قوما لُدّا، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودا.

ونظمت من غزا منهم ومن مات فيه وقبر، ومن رجع لأهله وشمّر، وسمّيته كتاب الإصابة فيمن غزا المغرب من الصّحـابـة". ولم أذكـر من غزاه منهم من التّـابعـين إلا القليل، رضي الله عنهم أجمعين مبتدئا بأول أمير غزاه، وأخلد فيه مزاياه، لأنّ الأمير كشجرة يستظل بها رعاياه، مقدما لك مقدمة بين نجواه، تعرف بها لحن الكلام وفحواه، فأقول ومن الله ارتجي حسن المأمول »

إذن تظهر من خلال هذه المقدّمة منهجية المؤلف وغرضه من تأليفه للكتاب اذ سوف لن يذكر إلا الصّحابة ولن يتعرّض للتّابعين أو تابعي التّابعين، وسوف يقوم بمجهود لذكر كل هؤلاء الصّحابة الذين فتحوا المغرب ونشروا الاسلام ومنهم من ماتوا على أرضه وقبروا فيها ومنهم من رجعوا إلى البلاد التي قدموا منها. وهم قد ركزوا الدّيانة المحمدية بهذه البلاد.

وقد بدأ المؤلف بمقدّمة جغرافية قصيرة عن موقع المغرب وحدوده معتمدا خاصة على ابن خلدون، فحدّد المغرب بمفهومه الواسع من البحر المحيط إلى السويس مشتملا على المغرب الأقصى فالأوسط فالأدنى بما فيه طرابلس وبرقة مرورا بفزّان وودّان والواحات ثم شرع في ذكر الصّحابة مبتدئا بعمرو بن العاص رضي الله عنه وقد اعتمد المؤلف على مصادر عديدة نذكر منها تاريخ ابن خلدون و"المؤنس في أخبار افريقية وتونس" لمحمد الرعيني القيرواني و"معالم الايمان في معرفة أهل القيروان" للدّباغ وابن ناجي و"حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" لجلال الدين السيوطي و"شرح الشفاء" لشهاب الدين الخفاجي.

وهو يعتمد خاصة على كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" لشهاب الدين بن حجر ونقتبس من هذا المخطوط نصوصا عن ثلاث شخصيات أفارقة قد عارضوا الصّحابة وحاربوهم

وقاوموهم مقاومة عنيفة طويلة وهم : جرجير وكسيلة والكاهنة .

1 ـ خبر جرجير :

في ترجمة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وترجمة عبد الله بن الزبير يرد خبر جرجير بعد أن يقدّمه المؤلف بأنه كان عاملا لهرقل ملك الرّوم ثم خلع طاعته واستقل وكانت قاعدة ملكه سبيطلة بقول المؤلف :

"قلت وسبيطلة هده هي التي كانت قاعدة افريقية اذذاك وهي المدينة الخراب العظمى ، ذات الرقام الكثيرة التي في بلاد ماجر قبلة مدينة الكاف، ولما بنى الصحابة القيروان كانت هي القاعدة ثم صارت تونس قاعدة إفريقية من أوّل القرن السادس إلى الآن" ويروي هذا الخبر ملخّصا إيّاه من كتاب الموّاق في شرحه للسيخ خليل من كتاب الجهاد وكذلك من كتاب "البيان المعرب في اخبار المغرب" لابن عذارى المراكشي يقول :

"كان جرجير سلطانها من طرابلس إلى طنجة فهاله أمر العرب ، فزيّن بنتا له كانت بارعة الجمال وقال لحشمه :

« أتعرفون هذه ». قالوا : نعم ، سيدتنا وبنت سيّدنا الملك .

فقال : وحقّ المسيح ودين النصرانية ما فتل رحل منكم ابن أبي سرح أمير العرب الا زوجها له . وسعب ه جمع ما معها من الحلي والحلل والجوارى . فحرض ىىلك الرّوم تحريضا شديدا وبلغ ذلك ابن أبي سرح فأخبر من معه من المسلمين لمقالة جرجير ثم قال لهم

ـ وحقّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ودين الاسلام ما قتل رجل منكم جرجيرا إلا نفلته ابنته

فانتـدب أناسا وفيهم عبد الله بن الزّبير وهو ابن بضع وعشرين سنة وشقّ الصّفوف وظفر بجرجير ثم ىداعوا في قتله فقالت البنت : إني أعرف قاتل أبي

فأمر ابن أبي سرح أن يمرّ الجيش بين يديها وهي تنظر حتى مر ابن الزبير : فقالت : هذا والمسيح قتل أبي

فقال له ابن أبي سرح : لم كتمت ؟

فقال : قد علم الذي قتلته له

فقال ابن أبي سرح : اذن والله انفلك ابنته

فنفله أيّاها واتخذها أما أم ولد .

ويعلّق المؤلف بقوله إن هذه الفتاة انتحرت وهي في طريقها إلى المدينة .

2 ـ خبر كسيلة :

ويورد خبر كسيلة بن برانس في ترجمة عقبة بن نافع ذاكرا أعمال عقبة بالجزائر وانتصاراته على جموع البربر ووصوله إلى البحر المحيط ملاحظا العداوة الشديدة التي كانت بين عقبة وأبي المهاجر والي افريقية قبله عندما أخلى القيروان وبنى مدينة أخرى وعندما رجع عقبة إلى الحكم اعتقل أبا المهاجر وخرب مدينته وعمّر القيروان .

وعندما كرّ عقبة راجعا من المغرب وقد دوّخ البلاد وكسيلة اذذاك أسيرا عنده : إلي أن بلغ طبنة بأرض الزاب وقتله كسيلة مع من معه من الجيش العربي الفاتح وقد استنجد بقومه ويعلّق المؤلف : وقبورهم بأرض الزّاب إلى الآن وقد جعل قبر عقبة مسجدا عرف باسمه وهو من مظان المزارات والبركة وبنيت هناك قرية يصلون في ذلك المسجد الجمعة" .

ثم زحف كسيلة إلى القيروان وفر من بقي من العرب إلى برقة إلى أن ولي عبد الملك . وبعث زهير بن قيس البلوي يطلب الثأر من كسيلة إلى أن ناله وهزمه .

نلاحظ أن "ابوراس" يوجز ويلخّص ما ورد من مصادر عديدة، ولهذا التأليف فائدة تعليمية لا تنكر، إذ أن المؤلف يضع في متناول طلبته ما يساعدهم على حفظ تاريخ الفتح

الاسلامي لبلادهم وله تعليقات شخصية قيّمة في كثير من المواطن فيلاحظ مثلا سبب اختيار الصحابة للقيروان ويفسر ذلك بقوله "واختيار الصحابة رضي الله عنهم ذلك من الصحراء مع قلة مائه ومطره لكون الإبل تصلح فيه".

3 ـ خبر الكاهنة :

أما الكاهنة فهو يهتمّ بخبرها. ورغم أن المؤلّف حريص على الا يترجم لتابعي، فقد ذكر خبر حسّان بن النعمان الغساني وهو تابعي وذكر زحفه على إفريقية بأعظم جيش وفتحه لقرطاجنة وملاقاته للكاهنة دَهيا بنت ثابتة بن تيعان ملكة جبل اوراس بوادي مسكيانة وانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير ولم تزل الكاهنة في اعقابهم حتى اخرجتهم من أرض قابس وطاردت حسان إلى طرابلس ولم يعد الكرّة حتى جاءه المدد فزحف إليها وآنهزمت بجموعها وقتلت.

ويعلق المؤلف :

« طرحت في البئر المعروفة بها لهذا العهد بجبل أوراس فأسلم البربر وأطاعوا على أن يكون معه منهم اثنا عشر ألف يجاهدون معه ».

ديــوان محمــد الرشيــد بــاي
ونشاطه الأدبي والثقافي

ولد الأمير الرشيد سنة 1122 هـ وتوفي سنة 1172 هـ وهما سنتان توافقان سنتي 171 و 1759 م. اي عاش الأمير كامل النصف الأول من القرن الثامن عشر المسيحي قضى، ما يقارب نصفها بالجزائر وربحها في الحروب والمعارك والفتن بكـامـل البـلاد التـونسية. هو ابن مؤسس الـدولـة الحسينية حسـين باي، أسسها في 15 جويلية 1705. ولم يتول الرشيد الحكم إلا مدة تقرب من ثلاث سنوات من سنة 1756 إلى سنة 1759.

كان والـده متـزوجا بعربية لم تنجب له الأولاد الذكور، وكان على أحر من الجمر كي يرزقه الله ذكرا يرثه في الحكم، فقرّب إليه حفيده للأخ عليا وأخذ يهيئه لولاية العهد ويرسله لقيادة المحـال في الشـمال والجنوب لاستخلاِص الأداءات. لكن حدث لحسين ما لم يكن في الحسبان إذ أهديت له جارية ايطالية حسناء من جنوة اسرت مع بعض قومها في سفينة، فتزوجها وولدت له محمد الرشيد هذا وثلاثة أبناء آخرين.

وسرعان ما قرر الأب أن يغير ولاية العهد وليته لم يرزق الـذكـور، إذ آذن بعهـد سادت فيه الاضـطرابـات وعمت الفــوضى وشملت الحـرب الأهلية كامـل البـلاد، شرقهـا وغربها، شمالها وجنوبها، وذاق منها الأهالي الأمرين، دهتهم الدواهي واشتد التنكيل بهم، ولم ينج من النهب وهتك الستر أحد.

لم ترض علي باشـا ابن اخ حسـين باي الامتيازات التي أغدقها عليه عمّه لتغيير ولاية العهد، وبدأ يتآمر لقلب عمه والحلول محله فالتجـأ إلى جبـل وسلات حيث أعلن الثورة وذلك في سنة 1728 فاستعد له عمّه وجهّز نفسه مع ابنائه لمواجهة المتمرّد ومحاربته. ودارت حرب شعواء لا ترحم مدى اثنتي عشرة سنـة لم تنـطفىء في المـرحلة الأولى الا بمصرع حسين سنة 1740.

وقد تسربت الحرب من جبل وسلات إلى منطقة الكاف فالقيروان فالساحل فالجنوب ولم يتغلب علي باشا إلا بمناصرة جيش من الجزائر استطاع به أن ينتصر على عمّه. وانقسمت البـلاد إلى حسينية وبـاشية. فالحسينية عاصمتهم القيروان تواليهم خاصـة مدن سوسة والمنستير والقلعة الكبرى، وقد قاست هذه المدن من بطش علي باشا ما لا تتصوره العقول، اذ قطع الزيتون وغرم الأهالي بالمال، وشردهم وصادر السلع

وأزهق الأرواح «وصارت العباد كالقمح بين شقي الرحى وهذا ما قدره الله ولا حول ولا قوة الا بالله » كما عبّر عن ذلك صاحب « المشرع الملكي » محمد الصغير بن يوسف وقد شاهد هذه الأحداث وشارك فيها ووصفها في كتابه هذا الذي لم يزل مخطوطا.

صرع حسين باي بالقيروان في 13 ماي 1740 إذ رماه حفيده للأخ يونس بسهم فأرداه قتيلا واجتز رأسه وبعث بها مع أخيه سليمان إلى والده علي باشا بتونس، ولم يصل إلى ذلك إلا بعد أن حاصر يونس القيروان ما يقارب من عام وقد ذاقت وبال أمرها حتى التجأ أهلها إلى أكل الكلاب والسنانير والجيف وجلود الحيوانات . . وعاثت في أهاليها أيدي النهب والأخذ والقتل فتشتتوا في البلاد. ودك يونس حصون القيروان وهدم سورها وحكّم السيف في رقاب سكّانها . . وعند ذاك تفرقت عصابة حسين بن علي وفر محمد الرشيد مع اخوته إلى الجزائر حيث أقاموا بها حوالي عشرين سنة يطلبون الأزر، يتراوحون بني الأمل واليأس يتربصون بالفرص إلى أن عادوا إلى تونس بعد أحداث مريعة هزّت نظام ابن عمهم (ثورة ابنه يونس عليه، تحطيم سور العاصمة من جهة باب بنات وباب سويقة وباب قرطاجنة) يؤازرهم جيش تركي من الجزائر، وقد روعوا أهل تونس الحاضرة بالاسراف في النهب والقتل وهتك الأستار وكسر الأبواب حتى قيل ان الرشيد

نفسه قد ندم على عمله، وانتهت حياة علي باشا في ظروف مهولة. وقد خلف الأمير محمد الرشيد ديوان شعر ما زال مخطوطا، سنحاول تقديمه والتعريف به فيما يلي :

ان الأشعار التي يضّمها هذا الديوان نظمه الرشيد بمنفاه بالجزائر من سنة 1740 إلى 6 جوان 1765 وهي تصور حالته النفسية والحقد الدفين الذي كان يكنه لابن عمه، والآمال العريضة في الرجوع إلى العاصمة منشئه.

وترسم كذلك النشاط الأدبي الذي كان يتعاطاه مع ندمائه وأصحابه الذين رافقوه في غربته، نذكر منهم خاصة الأديبين : أستاذه محمد الشافعي الباجي وكاتبه أحمد الأصرم القيرواني « وكانت حرفتهما بالجزائر بث العلم وصناعة التوثيق وبقية خواصه كل واحد يباشر حرفته نهارا ويبيت ببستان سيده ليلا » (1). وهذا البستان هو قصر باردو بضاحية الجزائر المعروف الآن « بمتحف النوع الانساني » (2) وقد كان الرشيد يسلي نفسه فيه بالمطالعة والمسامرة، وكاني يعقد فيه مجالس الطرب والأنس يحضرها فنانو الجزائر وقسنطينة، ينشدون الأغاني الجزائرية.

---

1) اتحاف اهل الزمان ح 2 ص 178 . ط 2 .

2) انظر حاشية عدد 51 ص 178 نفس المرجع.

وللديوان ثلاث نسخ بدار الكتب الوطنية نعتمد منها خاصة نسخة صغيرة الحجم، حسنة الخط، مذهبة الصفحة الأولى والتسفير. بها 48 ورقة مكتوبة سنة 1171 هـ / 1757 ـ م ـ 1758 م. أي إن هذه النسخة حررت في حياة المؤلف عند رجوعه لتونس بقلم كاتب صفاقسي. ووضع عليها عنوان : « ديوان محمد باي التونسي أمير المؤمنين قدس الله روحه الطاهرة » ورقمه 2198، وكانت هذه النسخة على ملك محمد الصادق باي بن مصطفى باي سنة 1327 هـ .

أما النسختان الأخريان : فنسخة طبق الأصل من الأولى بورق وزيري عادي رقمها 3837 ثم نسخة رقم 6624.

وليس لهذا الديوان مقدمة عامة ويحتوي في أوله على خمس قصائد طويلة تفوق كل واحدة منها 50 بيتا : قافية (53 بيتا) وميمية (64 بيتا) وبائية (56 بيتا) وهائية (84 بيتا) وضادية (52 بيتا) ثم ترد القصائد التي تعد أقل من 50 بيتا : نونية (34 بيتا). ورائية (20 بيتا) ثم مقطوعات قصيرة الخ . . .

وقد لاحظ كل من ترجم للرشيد من المؤرخين ميله إلى الأدب منذ نشأته إلى آخر حياته، وذكروا بعض أشعاره لكنهم لم يسجلوا هذه الأشعار الهجائية التي يذم فيها ابن عمه

ويسلقه، ويصوره في أبشع صورة، كما أنهم لم يضمنوا تآليفهم أشعاره الداعية للثورة والتمرد في أرجاء البلاد على ابن عمه قال عنه الباجي المسعودي في « الخلاصة النقية » انه كان « من صدور الأدباء وفحول الشعراء وسخاء الملوك، ونظمه مدون مشهور » وقال عنه صاحب « عنوان الأريب » لما وصل إلى سن التأديب أوكله والده إلى المعلمين، فلم يجاوز سن الصبا، حتى كان لاخبار كمال نجابته نَبا، قد عرف سياسة الملك، ونظم اداب الرئاسة في سلك، وأخذ من كل علم بطرف، وعرف الدهر من تحققه بالتقدم ما عرف . .

(ج 2 ص 24) .

ثم أضاف ان « له اليد الطولى في علوم الأدب، معدودا في علماء عصره، معروف الاجادة في نثره وشعره، وله ديوان شعر صغير الحجم، متداول بين الأدباء » .

(ج 2 ص 24) .

ويقول صاحب « مجمل تاريخ الأدب التونسي » في ص 236 انه : « كانت لهذا الأمير خبرة تامة بالأدب وفنونه، وكان مولعا بالموسيقى وفن الغناء، وهو الذي رتب الأغاني الشعبية الأندلسية منها والتونسية المعروف جمعها باسم « المالوف » وتسمى في بقية المغرب « بالغرناطي » ومع ذلك فإن له ذوقا سليما في الأدب وشعرا فائقا . . » .

ونلاحظ أن الجمعية الرشيدية الشهيرة في بلاد المغرب والمشرق والتي تأسست بتونس سنة 1353 هـ / 1934 م على يدي المرحوم مصطفى صفر بن أبي النهضة البشير صفر للنهوض بفن المالوف، والمحافظة على ما بقي من الأغاني التونسية وابرازها، وجمع التراث الغنائي القديم وبثّه في أوساط الشعب، قد نسبت لهذا الأمير لسببين :

1 ـ تقديرا لميوله الأدبية والموسيقية واعترافا لايادي الرائد الأول الذي يقال انه هو الذي رتب النوبة الموسيقية على النظام المعروف بها الآن.

2 ـ لاكتساب حصانة تحميها آنذاك بانتسابها إلى أحد البايات الحسينين من مناوءات المستعمرين الذين كانوا آنذاك يقاومون كل مشروع ثقافي وطني . .

واثر رجوع محمد الرشيد إلى تونس لم يتول الحكم إلا صوريا إذ كان أخوه هو الناهض حقيقة بأعباء الأمور ويسندها إلى اسمه ويحملها إليه بنفسه ليوقعها بختمه. وقد كان محمد الرشيد يلازم البساتين بمنوبة ويذكر صاحب « الإتحاف » هذه البساتين فيقول انه كانت « له في العلماء محبة وتعظيم، يجالسهم ويباسطهم ويحن إلى مسامرتهم، ويستدعي أهل المجلس الشرعي وغيرهم من العلماء للضيافة في بستانه في منوبة، ويحتفل لاكرامهم ويدور معهم خلال الشجر ممتزجا بهم امتزاج الأصحاب ويطيل معهم السمر » (3).

---

3) ص 191 نفس المرجع.

ويعلق الباجي المسعودي على رجوعه إلى تونس فيذكر بكتابه « الخلاصة النقية » (ص 131) قائلا : دخل أصحابه الحاضرة بعد طول الغربة، فافرجوا على أنفسهم شيئا بالميل إلى السماع والنزهة في الخلاعات وتابعهم على ذلك غيرهم.

أغراض الديوان

تغلب على ديوان الـرشيد نزعـة الاستعطاف والاستغاثة ونجد فيه الميل إلى البكاء والشكوى ولهجة التوسل والتضرع وعواطف الأسى والحزن والحيرة والالتياع.

وقد قدم قصائده الأولى إذ نجد في أول صفحة من ديوانه مقدمة نثرية مسجّعة لقصيدته التي مطلعها :

أمولاي إن النفس لما تعودت جميلك

راحـت بالفواضـل تنطـق

وهي هذه :

« الحمد لله الذي حرس الأرواح في الأشباح، والشكر لمن حفـظها من عواصف الرياح، والصلاة والسلام على سيدنا محمـد هادي الأمة، ومجلي الغمة، بنوره الوضاح، وعلى آله الأبرار وصحابته الأخيار صلاة وسلاما يتعاقبان بتعاقب الغدو والرواح.

وبعد فيقول عبيد ربه، الراجي منه غفران ذنبه، المرحوم برحمته رب العالمين محمد باي أمير المؤمنين، ابن المرحوم برحمة الصمـد العلي، أمير المؤمنين حسين بن علي لازالت سحب الغفـران على ضريحهم هامية، ودرجـاتهم في أعـلى الجنات سامية، لما لفظتني لهوات الفتن، ولعبت بي صوالج الكروب

المحن، فالقتني لقطر الجزائر، وصار القلب في الانقلاب حائر قذف العقل الجاهد، والفكر الخامد، قصيدة من غير قصد، واندفق يدمي عن فصد، مما اعتراه من لواعج الاحتراق وتباريح الفوائد، بزواعج الفراق اشكر الله فيها على ما فرط من النعم، وأشكوه حوادث الدهر وبوائق النقم، وأتوسل إليه بأصفيائه والصالحين من أوليائه ان يرد الأيام التي سلفت ويمنح النفوس ما اعتادت وما ألفت.

هذا واني ما نهت قط بنظم ولا نثر ودون التفرس سقطات وعثر لكن حسن الظن بالكرام، والطمع الساري في الأنام، هو الذي أجراني على كتبها وأغراني حيث عرضت بنفسي وبها، ثم يسجل قصيدته وفيها كثير من الأغراض : فهو يفتخر بحكم أبيه السالف ويتغنى بتونس العاصمة ويحن إليها :

أقمنا بقدر الجهد قائم شرعنا
فترشيش أضحى علمها يتدفّق
وجرّت ذيول الفخر من نظراتها
فلا الشام يحكيها ولا هو جلق
كذلك عراق اعرقت منه غيرة
وأمسى سدير « مبكتا »و « خورنق »

فما في جميع الأرض مصر يفوقها

وليت لهـا نيـل عليهـا محلـو

لئن ردّنـي ربّـي إليهـا بفضلـه

لأجري لها نهرا كما النيل يدفـ

ويعلق ابن أبي الضيافه على هذا البيت لأخيه بقوله « يعني مجردة، وشرع في الوفاء بالعهد لو لا مضاء الأجل » . (4)

ويواصل الرشيد مناجيا تونس بنفس باك حزين، وبنغمة معبرة عن حالة الغريب، المتشوق إلى عهد نشأته في البساتين والقصور بين الحور والخدم في الترف والبذخ يقول :

أتونس بعد الأنس نالتك وحشة

فسحّي دموعا بل دما يترقـرق

ويا أهلها كم قد بلغتم من المنى

وأيامكم أعياد والأمن مطلـق

. . لهفت على تلك الديار وياها

قصور بها حور وفرش تـمـو

. . أمولاي صبّرني على ما قضيته

فإنّي راض غير دمعي يسبــو

---

4) الاتحاف ج 2 ص 191 .

ثم يروي الشاعر قصة نكبته ويذكر الفتنة التي مرت بها البلاد والحرب الأهلية الطاحنة التي ذهب ضحيتها الأهالي يقــول :

دها عيشنا المخضر محمر حـادث

فاصفـرّ مبيـضٌ واسـودّ ازرق

. . عزيز ديار الشرق صار غريبها

بمغربها سوى صدّ لصدري يحرق

ومن كان معروفا غدا متنكـرا

فكيـف حيـاة بعد مازال رونـق

. . أيا راحم العاصين ان قلوبنا

ذوت وغدت مما تعانيه تخفق

واكبادنا قد اصليت نـار جمـرة

فمـا لمرامـيّ من سواك محقّـق

ثم يجرأ بالدعاء إلى الله هاجيا ابن عمه علي باشا واصفا اياه بالكفر والظلم والقتل والفحش واتيان الكبائر والموبقات يقول :

فخذ لي بثأري من عدوي فإنه

كفور ظلوم في معاصيه موبق

علـيٌّ علا رمحا ويونس صارما

هما وابي شران والفرخ اسبق

أبوه أبي في الفحش الا كبيرة

كذا الابن يروي عن ابيه ويخرق

وما ذو غنـى الا وجـرّد مالـه

فـراح سـواء ذو يسـار وممـلق

وأهلك حرثا ثم نسلا ولم يذر

ولم يبق حتى كاد لم ينج ملصق

بغوا وعتوا في الأرض ظلما ومنكرا

فقوم ثمود من مناهلهم سقوا

ويختم قصيدته بهذه الدعوات الحارة :

. . وردّ علينـا ملكنـا فعيوننـا

تسحّ أسى انسانها كاد يغـرق

ولم شتـات الشـمل عند مقرّنـا

فأرواحنا ممـا اعتراها تغلّـق

وقد حظيت هذه القصيدة بالشرح والتعليق كشرح العالم صالح الكواش .

أمـا الـقـصـيدة الـثـانـية فهـي القصيدة المعـروفـة بعنوان : « حركات السواكن الى أشرف الأماكن » مطلعها :

هل زورة تشفـي فـؤاد متيـم

يـا آل مكة والحطيم وزمـزم

وهي قصيدة دينية في الحنين إلى الأراضي المقدسة، شرحها أستاذه محمد الشافعي شرحا في جزأين، نوه به من ترجموا لهذا العالم قال الباجي المسعودي (ص 131) عن هذا الشرح وشرح الكواش المذكور آنفا (ص 131) « هما شرحان جليلان، افعماهما بالفوائد العلمية المنتقاة من فنون شتى وصارا ديواني علم وروضتي ادب » وقد اختصر شرح الشافعي أحمد بن حسين رئيس المفتيين المالكيين، لكن كل هذه الشروح مفقودة وقدم الرشيد هذه القصيدة بقوله بعد الديباجة :

« وبعد فإني كنت قصير الباع، قليل المتاع، قد ألجأتني مساورة الغموم، ومسامرة الهموم، أن أشغل عن الفجر نفسي، واستجلب بشيء من النظم أنسي » فألّف هذه القصيدة الدينية. ويناجي الرسول بقوله :

يا نخبة الرحمان يا من نوره

من قبل طينة آدم المتقدم

قلبي إلى ارجاء طيبة طائر

ينشى وينشد سجعه بترنم

يا سر ايجاد الوجود ورحمة

للكون اعرابيه والأعجم

أنت الذي ترجى لكل ملمّة

ولكشف ما أوهى قواي وأعظمي

أبلغ عُبَيدكَ منك ما يرجوه للدّا

رين وانصره بنصر مبرم

.. ليتم لي الترحال نحوك آمنا

كيد العدى والظالم المتظلّم

فجميع خلق الله أفجعهم بأنـ

ـواع السوائق والعذاب المؤلم

ما بات من ذنب على ندم ولم

يفلح وأكّد فعله بتصمّم

وبنوه ما فاقوه الا في الخنى

وتسابقوا ركضا لنهب الدرهم

قوم تجمّعت المخازي فيهم

ففعالهم لا ترتضى من مسلم

.. ويل لهم ولحزبهم ولنسلهم

ولمن عدا لهم جميعا ينتمي

واجعلهم هدف البلايا عاجلا

ترميهم نوب الزمان باسهم

.. لي اربع ارجوك تنجيني بها

وأفوز بالاسعاد يوم المغرم

حبّي النبيّ وآله وصفاء با

طنتي واني للنبيّ الهادي سمي

ونلاحظ أخيرا أن جلّ اشعاره تتم بالتوسل بالنبي والأولياء والمقدسات الاسلامية وبالابتهال إلى الله والاستعطاف وتذكرنا أشعاره بشعر الأمراء الغرباء كالمعتمد بن عباد أبي فراس لكن السائد في هذه الاشعار معاني الثورة على والدعوة للتمرد.

يقول من قصيدة هائية (84 بيتا) دينية أيضا يتشوق نبيها إلى قبر الرسول :

إني غريب بأرض المغربين ومر

على مقلتي من بأرض الشوق مرعاد

وقد اتوا منكرات يزعمون بها

سياسة وبهذا النكر قد فاهوا

استأصل الناس نهبا واستباح دما

وما نجا غير من أنجته رجلاه

بغى علينا واهلينا وشتتنا

وعم بالجور والخسران اعماه

وعمّه والدي ما انفك وابله

يهمي عليه إلى أن طاب مغناه

أدناه طفلا فلما اشتد شد له

حبل العقوق وهذا منه ادناه

قد عقّ والده والعمّ يا عجبا

حتى ابنه بسهام الحرب أصماه

يخشى من الخلق ذا عدّ وذا عدد

وبطش خالقه ما كان يخشاه

ويحتوي ديوانه على أغراض أخرى عديدة نذكر منها في الوصف هذه الأبيات في التغني بالربيع . :

قدم الربيع ووجهه يتهلل

والطلّ يلثم خدّه ويقبّل

فتدفّقت أنهاره وتفتّقت

أزهاره والدّوح خَوْد ترفل

والورد يضحك من بكاء غمامه

والغصن يرقص والهزار يولول

والزهر بين الروض كاسات يطو

فبها النّسيم على الغصون فنمثل

. . فابسط بساط الانبساط على صفا

وجه الغدير قد استتم المحفل

وانف الهموم على حشاك بغادة

خمرية ودع العذول يحوقل

واغنم زمان اللهو لا مستغرقا

فعسى شوائبه بغيرك تنزل

وثيقة عن حسين باي بن علي بالقيروان

عثرنا على هذه الوثيقة التي ننشرها في هذا الفصل، وهي تتضمّن هبة لدار كانت على ملك محمد بن عيسى، انتزعها منه حسين بن على مؤسس الدولة الحسينية ووهبها لأحد انصاره وهو أحمد الزيش الهذلي مكافأة له وعقابا لمالكها الأول على موالاته لابن احيه علي باشا. وكان حسين باي مقيما بالقيروان، قد اتخذها مركزا لرعايته وأنصاره. وتصفه الوثيقة بانه "حامي حمى الديار القيروانية مع ما انضمّ إليها من الثغور الاسلامية". وما يلفت النظر في هذا العقد هو الديباجة المبالغ فيها في الصفات التي كيلت لحسين باء منها أنه "ظل الله في ارضه وبلاده وباسط يد الامتنان على الخاصة والعامة من عباده مالك بساط البسيطة التونسية . . . " والأمر الثاني هو هذا الشعور بالاثم في نفس المالك الجديد، وعدم ارتياحه للهبة. فراح يعرض عقده على علماء القيروان كي يصححوا هته. وكلهم أفتوا بصحتها الا انّهم لم يعتبروا أن حسين باي انتزع الدار ظلما من مالكها بدعوى أنه نكث البيعة وخرج عن طاعته.

ومما تفيده هذه الوثيقة نظرة الحسينيين إلى الباشية أنهم بغاة خارجون عن الطاعة فاسدون. وكذلك نلمس من خلالها أن أهل القيروان لم يكونوا كلهم موالين لحسين باي ومنهم من كان منضمّا إلى حزب علي باشا باي. وكذلك نعلم من خلالها افادات عن مؤسسة بيت المال بالقيروان وبعض المعالم التوبوغرافية عن القيروان مثل سوق اللبادين والمخازن المجاورة للدور..

وأخيرا فلهذه الوثيقة قيمة تاريخية اذ حررت سنة 1152 هـ خلال الفترة التي اقام فيها حسين باي بن علي موسى الدولة الحسينية يقاوم ابن أخيه "قاطعا بسيوفه رؤوس أهل البغي والفساد".

نـــصّ الوثيقـــة

بعـد أن استقرّ على ملك السيّد الأعظم، والسّند الهمام المعظّم، الأسنى الأسمى، والكهف الملاذ، العماد الأحمى، أمير الأمراء العظام، وكبير السادة الكبار الفخام ظل الله في أرضه وبلاده، وباسط يد الامتنان على الخاصة والعامة من عبـاده، مع ما انضمّ إليهـا من الثغـور الاسـلامية، المولى المطاع، الواجب الاتّباع، والمجمع على بيعته بلا نزاع، المولى الامام، العلم الهمام، الذي أبانت دلائله مسالك الوصول، النّير الذي لا يخالط ضياؤه بقبض ولا افول، الملحوظ بعناية اللّه، والمحفـوظ بما حفظت به السّور والآي، أبو عبد الله سيّدنا ومولانا حسين باي حفظه اللّه تعالى ورعاه من كل سوء ومكـروه، وقـاه ولا زال بحـول اللّه في عزّ دولتـه، سلطان البلاد، قاطعا بسيوفه رؤوس أهل البغي والفساد، صلى اللّه عليه وعلى بنيه العظماء الأسياد، بحرمة سيد السادة، ومسند القادة، ومن اليه سائر الكمالات بأزمتها منقادة أمر جميع الدّار ذات الدريبة قبلية المفتح، الكائنة بسوق اللّبادين (1)، يحدّها قبلة حيث المفتـح وجـوفـا دار القـارىء المؤدب أبو القاسم البريسي (ا)، وغربا مخزنها المجاور لها، وشرقا حوانيت معدة

---

1) اللبادين   بائعو الصوف أو الأثواب الصّوفية

لصناعة اللبّادين، كل ذلك داخل مدينة القيروان، وشهرتها بمحلها بالسّوق المذكور شهرة كافية عن تحريرها بجميع حدودها وحقوقها وعامّة منافعها الاستقرار التام، بنيابته حفظه اللّه تعالى عن جانب بيت المال المعمور اذ هو وليّ نظره، والمتعاطي لفواضله وجميع أسبابه وشؤونه وتصرّفاته بأتمّ وجوه التصرّفات وأعمّها.

واقتضى نظر السّيد الباي المذكور، إدخال الدار المذكورة للجانب المذكور ويصرفها حيث يقتضي نظره بعد انتزاعها من يد مالكها وهو محمد بن عيسى القيرواني لخروجه عن طاعته وتمسكه بجانب عدوه، ونكثه بيعته بمقتضى النصوص الشرعية في أموال البغاة الخارجين عن طاعة من وجبت طاعته وحقت شرعا متابعته، لما رأى في ذلك من سداد وصلاح ردعا وزجرا له ولأمثاله العاملين بعمله عقابا لهم عمّا ارتكبوه من النّفاق والمخالفة للسيد الباي المذكور. وبعد كون ذلك كذلك أشهد الآن السيد الباي المالك المذكور للدار المذكورة بمقتضى ما ذكر أنّه وهب المكرم الأرشد، الأجل المرعي، ابراهيم بن المكرم الاجل الأبّي الناسك الحاج أحمد الزيش الهذلي جميع الدار ومخزنها المذكور بجميع حدود ذلك وحقوقه وعامة منافعه ومرافقه وجميع ما يعد منها وينسب إليها قديما وحديثا، هبة باتة للّه سبحانه وتعالى إحالة في ذلك على ثواب

اللّه الكريم، ونواله لجسيم، إنه يجزي المحسنين ولا يضيع أجر المتصدّقين، وأذنه في قبول ذلك منه وجوز ما ذكر عنه فحضر وقبل الدّار المذكورة من السّيد الباي الواهب المذكور قبولا تاما، داعيا له بالظفر والتّمكين، والنّصر والفتح المبين، وحازها عنه حوزا، فورا ناجزا، بمعاينة أوّل شهيديه، فارغة الدار المذكورة من شواغل الواهب وعقود أكريته، شهد على إشهادهما بذلك بما عن كلفهما فيه السّيد الباي الواهب المذكور بحال كمال حسبما تضمّنه طابعه المبارك الأسعد المرتسم هنا، منحه الله العزّ والهناء و . . . (2) النصر ونيل المنى آمين والموهوب له بحال الجوار وعرفهما بتاريخ أوائل شعبان المكرّم عام اثنين وخمسين ومائة والف ـ ابراهيم بوديدح واحمد . . .

أربع فتاوى في صحة هذه الهبة

الفتوى الأولى :

الحمد اللّه حمدا يليق بجلاله، وصلاة اللّه وسلامه على سيّدنا ومولانا محمد وصحبه وحزبه وآله وبعد لما سألني بعض الاخوان، كان الله لي وله عونا على خطوب الزّمان، عن صحة الهبة وفسادها، الواقعة من الأمير بالعقد المسطور

2) كلمات مطموسة

أعلاه، أجبته، وبالله أستعين، أنّ الهبة المذكورة صحيحة تماما، اذ شروطها تامة كاملة، مشتملة على الايجاب والقبول والحوز، وكون الأمير ممّن انعقدت له الشرعية، فما تصرّف فيه مما صار لبيت المال فتصرّف صحيح تام لماله من النظر في أموالها عملا بما أفتى به الجمّ الغفير من المتأخرين، وهو مقتضى ما لابن عرفة (3) وهو صريح ما للشيخ ابي القاسم البرزلي (4) في حاويه، ونقله الشيخ سيدي قاسم عظوم (5) في البرنامج وغيرهم من أئمة المذهب ووقعت به الفتوى من فقهاء العصر في مثله، وحينئذ ظهر لك مه صحّة الهبة المذكورة بلا مانع من ذلك، ولا معارض يعارض ما بدا لك، وهذا كفاية، وبالله التوفيق وكتبه مصليا على النبي الكريم عبده وفقير ربه.

ابراهيم بوديدح (6)

---

3) ابن عرفة : انظر ص 124

4) البرزلي : انظر ص 122

5) قاسم عظوم : هو أبو الفضل قاسم بن محمد بن عبد الله تولى القضاء والإفتاء بالقيروان توفي في شوال سنة 1261 هـ له أجوبة في الأحكام انظر عنه ص 201 من كتاب "تكميل العلماء والأعيان لمعالم الايمان في أولياء القيروان" للكناني القيرواني تونس 1970.

6) ابراهيم بوديدح : من عدول القيروان في عصر حسين باي الأول

الفتوى الثانية :

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده.

وقعت على رسم الهبة المسطور أعلى يمناه، وعلى جواب الشيخ المفتي أمامه، بعد أن سئلت الوقوف على ذلك، والجواب عن ذلك : اعلم أنّ كلّ ما أدخل البيت المال وصار من حقوقه فللناظر في فواضلها إصرافه (كذا) حيث شاء في وجه من أوجه المصالح لأنّ تصرّفه في ذلك بالبيع وغيره ماضٍ لا يتعرّض له فيه على ما ذهب إليه، وعمل به المتأخّرون من شيوخ المذهب وفاقا لابن حمدين (7) حيث قال : "كل خرج من بيت المال يبيع أو غيره لا ينظر فيه ولا يتعرّض له لأنّ في فتح ذلك مفسدة لوقوع الهرج بسبب ذلك من الناس وبه حكم الشيخ الصالح البطريني رحمه الله في قضية ابن عبد الحكم". قال الإمام البرزلي : وما قاله ابن حمدين هو الصّواب الأسد في حق الخاصّ والعامّ، فإذا علمت هذا فقاعدة المذهب أنّ الهبة إذا وجدت بشروطها وأركانها ومنه الحوز بالمعاينة كما في مسألة النّازلة فهي صحيحة عاملة، ولا كلام في ذلك وفي هذا القدر كفاية، والله تعالى أعلم وبه

---

7) ابن حمدين : لم أقف على ترجمته

التّـوثيق، وكتبه راجي لطف ربه عبد اللطيف الطوير. (8) وفقه الله آمين.

الفتوى الثالثة :

الحمد للّه ما أخذه السّيد الباي نصره اللّه تعالى، وأضافه إلى بيت المال فيصير المال من أموالها و . . . . (9) فله التصرّف فيه بما شاء، وحيث أخذ الدار المذكورة أعلى . . . وأدخلها البيت المال فهبته لها صحيحة عاملة . . . . (9) على ما أفتى به الشيخ البرزلي من أيمّتنا المالكية، وحكم به القاضي ابن حمدين وتبعهما على ذلك جلّ معاصريهما من فقهاء تونس، سيما حيث اشتملت الهبة المذكورة على ما لا تصح الا به من الايجاب والقبول، والحوز بالمعاينة، فقد تّمت ملكية الدار المذكورة لمن وهبت له، واللّه سبحانه وتعالى أعلم به التوفيق وكتبه عبد . . . (10)

---

8) عبد اللطيف الطوير : من الفقهاء العلماء والشعراء في العهد الحسيني. تولى الفتيا والقضاء بالقيروان توفي في ربيع الثاني سنة 1199 هـ انظر عنه "ديوان عبد اللطيف الطوير القيرواني" بتحقيقنا الدار العربية للكتاب. تونس 1981.

9) كلمات مطموسة.

10) خنفساء غير واضحة وهي نوع من توقيع الشهود العدول بتونس سابقا.

الفتوى الرابعة :

الحمد لله الهادي للصواب، ولله المرجع والمآب، والصلاة والسّلام الأتمان الأكملان على سيّدنا ومولانا محمد وآله وجملة الأصحاب، وبعد فإنّ ما صار لبيت المال، وأضيف إليها، وأدخِل فيها، وصار حقّا من حقوقها، فللناظر فيها والمتعاطي في أمرها التصرّف فيها بأنواع التصرّفات كبيع وصدقة وهبة من جميع الأمور المفوّتات، وحينئذ ففعله ماض في جميع ذلك، ولا يصدّ عن جميع تصرفاته صاد ولا يردّه رادّ بوجه ولها على حال حسبما نص على ذلك غير واحد من علمائنا رضي اللّه تعالى عنهم، بمثل ذلك أجيب، وعليه أتوكّل وإليه أنيب

وكتبه راجي لطف ربه الغني . . . .

"العقـد المنضـد في اخبـار المشير الباشا احمد"

للقاضي احمد بن سلامة

هو مخطوط بدار الكتب الوطنية رقم 18618 من مكتبة المـرحـوم حسن حسني عبد الوهاب يحتوى على 122 ورقة بمقياس 21x 8 , 15 لكن يوجـد به نقص يتخلل كامـل الكتاب وخاصة في آخره فلا نعرف بمذا ينتهى .

والمؤلف يترجم له أحمد بن أبي الضياف في تاريخه (الجزء 8 ص 77 ـ 79) . ومحمد النيفر في عنوان الأريب (الجزء 2 ص 101 ـ 103) .

وهـو الشيخ محمد بن محمد الطيب بن أحمد بن علي بن سلامة اعتنى جدّه وهو فقيه بتربيته وتدريبه وتعليمه وتهذيبه . وقرأ على الشّيخ محمد الشاذلي بن المؤدب وعلى العالم إبراهيم الـرّياحي وعـلى المشائخ محمد بن ملوكة وأحمد الأبّي ومحمّد المنّاعي الأب ومحمّد بيرم الثّالث ثم جلس للتّدريس بالجامع الأعظم وزاول الشهادة والتوثيق ثم أخذ يتدرّب على خطط القضـاء على يدي القـاضي محمّـد البحرى بن عبد السّتّار بالاطّلاع على فنّ الوثائق وفقه الأحكام .

وسرعان ما ولي قضاء المحلّة يسافر مع وليّ العهد بالبلاد لتخليص الجباية والاطلاع على أحوال المدن والقرى التونسية ليسجّلها فيها بعد في كتابه "العقد المنضد" ثم تولى القضاء بسراية باردو فقضاء الجماعة بالحاضرة وتقدم للفتيا بعد ذلك وتقلد خطة باش مفتي بلقب كاهية باش مفتي.

يقول ابن أبي الضياف عنه بلهجة المعجب المكبر والمادح بأسلوب مسجّع :

"كان عالما فقيها، أديبا ذكيّا حافظا، راش سهام الأحكام وبراها، وأجرى القواعد الشرعية مجراها، حتى تقدّم البازل، لحمل أحكام النّوازل، وأجال في كل فنّ قداحا، وأورى زند الذكاء اقتداحا، ما شئت من حفظ واطّلاع، وامتداد باع، وعلو همّة وكرم نفس". (1)

ولمحمد بن سلامة تآليف عديدة مختلفة في الفقه والتفسير والتّاريخ وله ديوان شعر مخطوط وأرجوزة في تاريخ البايات الحسينيين إلى عهد المشير الأول أحمد باي وله شرح لقصيدة العارف البكري اللاّمية التي أولها :

ما أرسل الرّحمان أو يرسل

من رحمة تصعد أو تنزل

---

1) اتحاف أهل الزمان : ج 8. ص 78

وتوفّي بمرض الوباء يوم الخميس الحادى عشر من شعبان سنة 1266 الموافق لـ 20 جوان 1850 م بسيدى أبي سعيد ودفن بتربة سيدى عبد العزيز بالمرسى كما أوصى.

وكتب القاضى بن سلامة كتابه "العقد المنضّد في أخبار المشير الباشا أحمد" وأهداه إلى الباي بهذه الدّيباجة (2) "فرأيت أن أرسله هديّة لمستحقّه وأعطيه هبة للعارف بمقدار حقّه، كي ينزّه طرفه ويحمد اللّه على ما نسب من الفضل إليه، لا زالت معاليه تؤرّخ وآثاره بطيب الثّناء تضمّخ"

ويذكر لنا المؤلف الدوافع التي دفعته إلى تدبيج هذا الكتاب : (3)

"وإنّي لّما شبّت شبيبتى في الأدب، وانسللت لطلبه من كلّ حدب، وصارت نفسى لأخبار" الملوك السابقة، وتراجم شعرائهم ووزرائهم شائقة، وبدأ باطن ذلك لي ظاهر العيان، فتمهّرت في الأخبار والوقائع أيّ مهارة، ووردت من صافي الأدب أنهاره، وعرفت السّير من علم الحديث وحثني عليه داعي التصبّى الحثّ الحثيث، فلبست حليه وقلدت جيدي فرائد الجمان.

---

2) ص 2

3) ص 1

وتتضح هكذا الدّوافع التي دفعت المؤلف لتدبيج كتابه هذا وهي ميله الشّديد للأدب وحبّه لتسجيل أخبار الملوك وترجمة الأعيان، إلاّ أنّ الدّافع الأكبر هو صلته بالباي أحمد وعلاقته به منذ سافر معه في المحلة إلى جهات البلاد وأياديه التي أنعم بها عليه خاصة عندما كان المؤلف فى أزمة شديدة يقول (4) :

"قد فوّق الدّهر لي سهامه، وطوى عنّي من منشور مسالمته أعلامه، ونصب لاقتناص مراهنتي حبائل المكر في شباك الحدثان فاشتدّت عنّي أشراكه شدّا، ومدت على يد الحوز مداّ، وصار يومي كليلي تذهل له المواضع وتشيب له الولدان (. . .) حتى انقلب غيهب الكرب بصبح والد أميرنا ـ الآن وبنجله السعيد البحر المديد، أشرقت شمسي، وراقت نفسي، واستضاءت جوانبي من كل مكان وقد أنعش هذا الأمير، الفذ العديم النظير، المؤرخ بهذا البستان كالح روضي، وأخصب مرعاه وأوسع حظي، وأحظى مسعاه، وأقام لي من الشأن أي شأن، وما زال يسدي النعم إلّي، ويرسل سحائب الفضل علي، فهأنذا متخبط في عوارفه المتحاشية عن الامتنان بنواله العريض، من السجع وعلم القريض، وصار لساني يسبق جناني، وجناني يسبق اللّسان،

---

4) ص 2

فمدحته ولم أزل أمدح، وعنّ لي أن آتي بما هو أوضح، وخفت أن انسب للغلو فيه، فأظهرت في هذا الكتاب مخفيه".

فهذا التأليف التاريخي الخاص بأحمد باي ليس اذن من التآليف التاريخية الموضوعية السليمة من الانحياز والميول العاطفية، وقد انتقده ابن أبي الضياف بقوله عنه "يشبه المديح" وأن صاحبه مثل صاحب الكتاب الباشي حمودة بن عبد العزيز لا يورد شيئا الا ما كان في صالح المؤرخ له اذ أن قصده الأول المدح والثناء وذكر المحامد والمحاسن والتغاضي عن العيوب غير أننا نجد أحمد بن أبي الضياف يعتمد عليه فى نقل الكثير من أخبار الباي أحمد. أما عن موضوع الكتاب فقد خصّص محمد بن سلامة المقدمة للحديث عن علم التّاريخ وعن الخطط الشرعية والسياسية والشروط التي يجب أن يتحلّى بها أصحابها معتمدا في ذلك خاصة على ابن خلدون وابن قيم الجوزية وختم مقدمته ببحث فى شروط الانسان الكامل وخصاله منها ضرورة اقتناء العلوم البيانية كالصرف والنحو والبيان والعروض والانشاء وعلم المحاضرة وغيرها.

وتمتدّ هذه المقدّمة على أكثر من مائة صفحة ولئن كانت نظرية وتقليدية فى معظمها فإنّ فيها أخبارا مهمّة طريفة عن الحياة بالعاصمة فى منتصف القرن الثامن عشر وفيها أيضا

بعض الأخبـار عن حمودة باشـا وإفادات عديدة عن الحياة الاقتصادية في عصره والخطط التي كانت بتونس وتعريفها مثل خطة أمين المعاش وخطّة الغون الذي يقدّمه القاضي للتسعير ومثل خطة آغة القصبة. ويلخّص المؤلف رأيه في هذه الخُطط بقوله (5)

"وحاصله أنّ بلادنا الآن هي أحسن بلدان الاسلام في إجراء الأحكام الشّرعية فيها على القوانين الفقهية" وهذا ما يفنّده صاحب "الاتحاف" بما يسرده من أخبار وتعليقات على الملك المطلق غير المقيّد بقانون أو شرع.

وقبل أن ينتقل القاضي محمد بن سلامة إلى أخبار الباي أحمد يقدم لنا توبوغرافيا كاملة عن مدينة تونس في عصره، أسـواقهـا وجـوامعهـا وأبـوابهـا وأبراجها ومبانيها ومنتزهاتها وقصورها وسوانيها وذلك بتفصيل نادر عند غيره ويختم حديثه عنها بقوله (6):

"وبـالجملة فمـدينـة تونس أمرها شهير، وخيرها كثير، عديمة المثيل والنظير". والكتاب زاخر بالإفادات والأحداث والأخبـار والأشعار والنوادر ونجد فيه شرحا لموشّح ابن أبي الضياف في المنتزهات التونسية ومقامتي الورغي والغراب عن

---

5) ص 16

6) نفسه.

تونس ويفيدنا كذلك عن حياة المؤلف إذ ينوّه بصلاته الوطيدة بأحمد باي ووزيره مصطفى خزندار الذي كان يزوره محمّلا بالجوائز وهو مريض بحمّام الأنف، ونقرأ فيه كذلك مدائح أحمد باي خاصة قصيدة أحمد فارس الشدياق في المشير الأول عند زيارة الشّاعر لتونس سنة 1258 وهي تقع في حوالى 70 بيتا أولها :

طابت بتونس لي في الدهر أوقات

للحظ عهد وللأفراح ميقات

ويتخلل الكتاب الأشعار التي نطمها في أحمد باي في مناسبات عديدة مثل تسويته بين المدرّسين المالكية والحنفية يقول فيها :

نظمت القوم فى سلك النّظام

فثغرَ المالكية في ابتسام

وأعزت الجماعة بانتساب

وليس العزّ في كسب الحطام

فسوّيت الورى في عدل قسم

نسخت يصبحه حيف الظلام

محال أن يظنّ النّاس هذا

وكاد يكون من نوع الحرام

ولولا اللّـه أرشد منـك قلبـا

لمـا لاقتـه حتّى فـي المنـام

ولكـن اللّـه أراد خيـرا

فأرشـدك السّبيل إلى القـوام

فألّفـت القلـوب بـه جميعـا

وواخيـت البريّـة بالتّمـام

فأنت اليوم أعـدل مـن رأينـا

بـك المبـدأ وخاتمـة الختـام

وأخـيرا فهـذا الكتـاب مهم لما يفيدنـا به عن الأوضـاع الاقتصـادية والسياسية والحـالـة الأدبية والفكرية بالبلاد في النصف الأول من القرن التاسع عشر وقد ألف قبل كل شيء لتمجيد باي ومجازاة بعض إحسانه ونعمه عليه.

زهر الربيع في محاسن البديع

لابرّاهيم بن قاسم الخرّاط الصفاقسي

هو من المؤلفات البلاغية النقدية التي برزت في تونس في العصر الحسيني وخاصة في أوائل القرن الثامن عشر المسيحي. وهو من المؤلفات النادرة في هذا الفن. وهذا التأليف ضائع أو شبه ضائع إذ عثرنا أخيرا على قطعة منه، تكشف لنا عن طرافة هذا التصنيف وعن حسّ صاحبه النقدي، ومدى ما وصلت إليه الفنون اللغوية والبلاغية من تطور بتونس منذ القرن الثامن عشر المسيحي. أما المؤلف ابراهيم الخراط فنحن نجد عنه ترجمتين، أما الأولى فهي لأحمد بن أبي الضياف في "الاتحاف" (ج 8 ص 23 - 24) وهي ترجمة قصيرة جدا ذكر له فيها بعض أساتذته وبعض صفاته وعمره ولم يطلع ابن أبي الضياف على كتاب: "زهر الربيع" مما يدل على أن هذا التأليف لم ينتشر بتونس انتشارا واسعا يقول أحمد بن أبي الضياف: "أبو اسحق ابراهيم الخراط الصفاقسي أخذ عن علماء صفاقس كالشيخ الطيب الشرفي، والشيخ محمد الفوراتي وغيرهما، وبرع في العلوم الأدبية وشعره معروف بصفاقس. وكان أديبا

ذكيا، حسن المحاضرة ذا سياسة تروض الصّعاب، وتبلغ الآراب ولم يزل على حاله، في برود كماله، إلى أن توفي سنة 1251 هـ / 1835 ـ 1836 م بعد أن عمّر مائة سنة ويقال له تأليف في الأدب سماه "زهر الربيع . . ."

لم يعرفنا اذن ابن أبي الضياف بهذا الكتاب لأنه لم يطّلع عليه ولم يأت حتى باسمه كاملا وحديثه عنه عام وغامض.

أما الترجمة الثانية فهي لمعاصره محمود مقديش الصفاقسي في كتابه "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" وصفه بأنه "صاحب القصائدالمشهورة والأبيات المنظومة والمنثورة" (ص 71 أ) ويقول عنه في ص 190 ب إنّه من أجل فقهاء صفاقس وشعرائها المجيدين أخذ العلوم عن الشيخ سيدي الطيب الشرفي وشيخنا أبي الحسن علي اللاومي وشيخنا أبي عبد الله محمد الفراتي بن علي وغيرهم من فقهاء بلده غذي منذ صغره بعلوم الأدب وبرع في علوم البلاغة والعروض، وبلغ أقصى الرتب، وارتفع بذلك صيته على شعراء زمانه خصوصا وقد انقرض الشعراء بالطاعون وبقي بعدهم على أنهم لو بقوا ما نقص مقامه عمّا هو فيه من علوّ المقام (. . .)امتدح الأمراء غربا وشرقا ونال منهم على ذلك العطايا الجزيلة (. . .) وله قصائد ومقطعات كثيرة جمعها بنفسه في ديوانه ويورد مقديش بعض اشعاره.

أمّا الشّيخ محمّد النيفر في "عنوان الاريب" (ج 2 ص 54 ـ 55) فلم يستطع أن يترجم له واقتصر على قوله : "كان حيّا سنة 1180 هـ " وذكر له قصيدة ذات 27 بيتا في تهنئة الأمير علي باي بن حسين (تولى الحكم من 12 فيفري 1759 إلى 26 ماي 1782) عندما قدم الأسطول الفرنسي سنة 1770 إلى حلق الوادي محاربا وأقلع راجعا لبلاده بعد إبرام الصلح وعقد معاهدة بين الحكومة التونسية والحكومة الفرنسيه وانشد الخراط هذه القصيدة مادحا الباي المذكور أولها :

لك الفتح فاعزم غازيا واحسم الكفرا
وجاهد فدين الله يهدي لك النصرا
بني الأصفر استعبد بسيفك إنني
أرى النصر معقودا برايتك الصفرا
فحسبك في الفرقان ما جاء منزّلا
وفي سورة الأنفال أعظم به بشرى
وحسبك فوزا نصر دين محمد
فدم حزما واغنم بأعدائك الظفرا
وحسبك هذا السّعد قاد غنيمة
إليك فجاهدهم تنالها وحز أجرا
لقد كنت ذا عزم لغزو بلادهم
لتفتحها إذ أنت منهم بها أحرى

فلم تغرهم حتى أتوك هدية

وقد ركبوا سفنا بها قطعوا البحرا

قلوبهم تحكي اضطراب قلوعها

كأني بهم صاروا جميعا بها أسرى

بسفنهم تلك الجموع تكسّرت

ولم يبق جمع منهم سالما ذكرا

ويضيف صاحب كتاب الأدب التونسي في العهد الحسيني بعض الأبيات الأخرى بدون ذكر للمرجع (1).

ويعلق على بعض اغراض شعر ابراهيم الخراط فيلاحظ الحروب الخارجية التي خاضها البايات مع بعض الدول الأوروبية ويقول : "قد ألهبت قلب (الشاعر الحسيني) فأثار فيه كمون الشعر وأيقظ فيه الشعور الاجتماعي العام" " ويضيف أن هذا الشعر "نغم جديد في الشعر الحسيني يعطينا صورة لشعور أهل ذلك العصر بمدى الخطر الأروبي الذي بدأ يسري في الخفاء كأنه الداء. وبهذا اللو من شعر المديح برهن الشاعر الحسيني على أنه قادر على صوغ الشعر صياغة تربطه بعصور النهضة الشعرية القديمة متى توفرت له الأجواء المناسبة لتحليقه" (2).

---

1) الدكتور الهادي حمودة الغزّي ، والكتاب صدر عن الدار التونسية للنشر، تونس ص 46 ،

2) نفس المرجع : ص 47 .

أما تأليف "زهر الربيع في محاسن البديع" فنحن لم نجد من تحدّث عنه أو قدّمه سوى الأستاذ محمود خروف في مقالة له بمجلة الثريا عدد 8 اوت سبتمبر 1944 من السنة الأولى (ص 41 ـ 44) والسنة الثانية، عدد 2، جانفي 1945 (ص 28 ـ 32) لكنه لم يذكر مكان هذا المخطوط، وإنما اكتفى بالتنويه به والاشارة إلى أنه كتاب قيّم ونفيس ونادر ويبقى هذا الفصل المرجع الأول إلى حدّ الآن من هذا الكتاب فقد قدّمه بأنه أثر خطير ثمين، بذل فيه مؤلفه مجهودا جبارا جمع فيه ما تفرق في غيره من علم وأدب.

وهو يقع في 630 صفحة من الحجم الكبير، تقرأه فتشعر أنك تقرأ في الكامل للمبّرد والأمالي لأبي علي القالي أو ما شابه ذلك من كتب الأدب النفيسة ووصفه لنا كما يلي ص 41 :

وهو مرتب على مقدمة وواحد وخمسين نوعا في فن البديع وخاتمة.

والمقدمة تشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في الكلام على فن الأدب وتقسيمه وما يليق بمتعاطيه.

الفصل الثاني : في فضل الشعر وما يجب على الشاعر اتباعه.

الفصل الثالث : فيما يجوز للشاعر ارتكابه.

ثم ينتقل المؤلف للحديث عن أنواع البديع نوعا نوعا. ويعلق الأستاذ خروف ذاكرا أن في الكتاب مختارات نادرة

بارعة من شعر القدماء ونوادرهم ومن شعر المحدثين وفيه القواعد العلمية في شتى الفنون وفيه النقد البارع المفيد وأشار إلى أنه لم تبق الأيام منه إلا نسخة واحدة خطها جميل تارة ورديئ أخرى وبها كثير من التحريف وصفحات عديدة بيضاء لا يدري سبب بياضها. وفيه ذكر شعراء صفاقس في القديم وفي عصره ويصف الأستاذ خروف هذا المخطوط بأنه روضة أريضة فيها متعة للنفس وسلوى للخاطر.

وقد ضمّن صاحب المقال فصله هذه السطور من المقدمة!

"اني لّما رأيت نجم الأدب قارب الأفول، وقد تداعت أوراق أغصانه للذبول، وقلّ في الناس من يستعذب له ذوقا ويأتزر له إزارا، أو يتطوّق له طوقا، ولم أر في بلدي من استمطر له رذاذا إلاّ ويقول لي "يا ابراهيم اعرض عن هذا" لاسيما بانقراض محبّي القريض ومعمّري روضه الأريض... تاقت نفسى أن أؤلف إن شاء الله تأليفا في فنّ البديع يكون للأديب المتأمل نزهة كزهر الرّبيع ولا أثبت فيه إلاّ ما وقع عليه اختياري، فمن الشعر عيونه، ومن النثر درره المكنونة... إلا أنّ عوائق الخطوب عن ذلك تصدّنى، وبوائق الكروب تثني عنان عزمي وتردّني، فإنّ حرفة الأدب لا يساعفها الزّمان ولا يعاملها دائما إلا بالحرمان.

وما الجمع بين الماء والنار في يد

بأصعب من أن أجمع المال والفهما

وكنت في خلال ذلك أجالس ذوي المذاكرة والمسامرة والمحاضرة وأتردّد لحضرة المولى الذي همّته سمت فوق السماكين وجاوزت الجوزاء وفرق الفرقدين، متعاطي فنون الآداب، ومعمّر ربوعها بالمكارم، ومتناول الثريّا قاعدا غير قائم، ذي الحظ الوفي الأوفى الذي إذا استنجد أنجد، وأفاض النّوال وأمطر، الوفّي بالعهود، القائد أبا الثّناء الجلولي محمود، فامتزجت ألفته امتزاج الماء بالرّاح، وألفت بصحبته تألف الأجساد بالأرواح . . .

فأشرت له بما خلج في صدرى من هذا المرام، فزادني حفظه الله، في ذلك تحريضا، وألزمني قياما بذلك الأمر ونهوضا. وكذا نجله الحسيب النّسيب، الأسعد الأمجد، الأوحد الأنجد أبو عبد الله محمد فهو كاسمه مفرد علم، ومن شابه أباه فما ظلم . . . "

وقد عثرنا نحن على 10 ورقات من "زهر الربيع" تعطينا فكرة وان بسيطة عن هذا المخطوط الضائع وعن مؤلفه وميوله الأدبية، ونرى المؤلف يرجع في هذ الصفحات إلى ابن الأثير في "المثل السائر" وابن نباتة وكتابه المسمّى "خبز الشعير" وأبي بكر علي بن حجة الحموي في شرح بديعيته في مدح النبي عليه السلام المسماة "خزانة الأدب وغاية الارب" .

ومخطوط "زهر الربيع" هو في فنون البلاغة التي كانت مستحسنة في عصر الشاعر. وقيمة هذه الأوراق أنها تحفظ لنا بعض آراء المؤلف البلاغية وبعض أشعاره التي اعتمد فيها تطبيق هذه القوانين البلاغية وكذلك بعض أشعار معاصريه كالغراب الصفاقسي والطوير القيرواني التي توخوا فيها هذه الفنون كالتورية وحسن التخلّص وحذق الابتداء ومحاسنه . . .

ونورد بعضا من هذه الصفحات من القطعة لبيان طريقة ابراهيم الخراط في الكتابة وفي قرض الشعر ونرى من خلال هذا المخطوط ما كان شعراء العهد الحسيني يؤثرونه من أنماط وأفانين شعرية ونلاحظ أن كتاب الخراط كان منتشرا في عصره في أوساط الكتاب والشعراء والأدباء خاصة بصفاقس والقيروان.

النوع الثاني من فن البديع : حسن التخلص

هذا النوع أعني حسن التخلص عند المتقدمين هو أن ينتقل الشاعر من معنى إلى معنى لمناسبة حسنة ثم يعود إلى الأول ثم يرجع إلى ما كان فيه (. . .).

وعادة العرب إذا فرغوا من وصف الإبل أو القفار أو ما هم بصدده يقولون : عد عن ذا وما شابهه، ويأخذون فيما يقصدونه. ومذهب المولدين أحسن لأنهم يستفتحون قصائدهم بالتشبيب لما فيه من استدعاء القلوب ولما تميل الطباع إليه من حب الغزل والميل إلى المحبوب ويكثرون تغزلهم بذكر المدام والأزهار والرياحين، ويكثرون تشكيهم من الصدود والرقباء والواشين وأما شعراء العرب البادية، فإنما همهم وصف الطلول والموارد والمياه التي يلتقون عليها ووصف الأعشاب التي ينزلون عليها في البرية ولمع البروق وما يلوح لهم من النيران بخيام أحبابهم والمحزنون إنما يذكرون الديار والأطلال مجازا وبعضهم مولع بالخيل وجوب الفيافي كالمتنبي.

وأما عند المتأخرين أهل رسوخ القدم في البلاغة وتمكين الذهن في الابداع هو أن ينتقل الشاعر من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه، يختلسه بشدة ملازمة والتئام بينهما كمن يكون أخذ طريقا فلم يشعر إلا وهو في طريق آخر ولا يرجع إلى الأوّل وإلّا كان استطرادا لأن الاستطراد يشترط فيه

الرّجوع إلى الكلام الأوّل بخلاف التخلّص فإنّه لا يرجع إلى الأوّل بل يستمر على ما يخلص إليه .

وهذا النوع اعتنى به المتأخرون ، إلا ان العرب لم يفتهم ، فقد أوردوا لزهير قوله :

إن البخيل ملوم حيث كان ولكنّ الكريم على عِلاَّتِهِ هَرِمُ

والأحسن أن يكـون في بيت واحـد كهذا ينتقل من السطر الأول إلى الثاني وإلا كان اقتضابا . والاقتضاب هو أن ينتقل الشّاعر من معنى إلى معنى من غير تعليق بينها كأنه استبدأ كلاما آخر .

هذا ملخص تحديد علماء هذا الـفـن لحسـن التخلص والمولّدون هم الذين أحدثوا فيه كل غريبة (. . .) .

ويورد الخـراط نماذج لحسن التخلّص من شعـر أبي تّمام والبحتري ومن القرآن الكريم ثم يورد أبياتا للشيخ الدماميني في مدحيته للنبي صلى الله عليه وسلم ثم يورد إثر ذلك بعض اشعاره (ص 8) يقول معقبا :

"تقدم أن أحسن التخلص ما كان في بيت واحد ينتقل من السطر الأول للثّاني (. . و) إن احسن التخلّص ما كان فيه مصرّحا بحسن التخلّص أو ببديع التورية .

فيه يحسن التخلص قول الشيخ الدماميني في قصيدته التي مدح بها نبيّنا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي أولها :

لقد نلت منكم في الزّمان الذي مرّا

حلاوة وصل لم أذق بعدها مرّا

وهي مشهورة يقول منها :

اذا عضّك الدّهر الخؤون بنابه

فلا تقرعنّ السنّ والتزم الصّبرا

ومهلا فحال الدّهر ما قد علمته

فيوما ترى عسرا ويوما ترى يسرا

وإن كنت في أيدى الحوادث فاصطبر

على قبضها وآبسط لأيامك العذرا

ومهما ترد حسن التخلّص فامتدح

أجلّ البرايا تقتني المجد والفخرا

اقتفيت اثر هذا الشيخ فقلت في ملخص قصيدة مدحت بها سلطان المغرب وأوّلها :

إذا رمت إدراك العلا فاسلك الصّعبا

وبالنفس خاطر للخطير ودع رهبا

وزرْ ربع من تهوى ولو كان نائيا

على أي حال فيه كن هائما صبّا

ألم تريْ ملكتِ للحب مهجتي

ولم تعطني مثقال ودّ ولا خبّا

لي الله لكم خاطرت في سبل الهوى

بنفس تجافي الورد إن لم يكن صعبا

ففي درك الآمال استقصر الخطى

وفي موقف الأعمال أستصغر الخطبا

. . . ولو فاض لي عذب الدّموع بأسره

تخلّصت بالمولى الذي ملك الغربا

ويضيف ابراهيم الخراط مفتخرا بهذا التخلّص، متبجّحا، معتزّا مخاطبا القارىء :

"أيها المتأمّل المصنّف لهذا التحلّص الخالص الإبداع، ما خطّ مثله براع".

ثم يضيف قصيدته المدحية مختارا منها ثلاثة عشر بيتا في مدح ملك المغرب ويلاحظ أنّها موجودة في تاريخ محمود مقديش قائلا : "أثبتها لنا بتمامها أخونا الشيخ العمدة، المحقق السّيد الحاج محمود مقديش في كتابه "نزهة الأنظار" فلا نطيل بها هنا (ص 10)، ثم بدرج بعض اشعاره الأخرى :

"قولي متخلصا في قصيدة مدحت بها مولانا المعظم الأرفع الباشا سيدي علي باي وأولها :

لعمرك ما في المرد وإلا كؤوس الخمر

فخار ولا في رشف معسولة الثغر

وما الفخر والعيش اللذيذ سوى العلا

وادراكها بالبيض واللّدن السّمر

وما المجد إلاّ العفو من قادر وما

صنيع الهدى إلاّ الصنيعة للحر

ومن ساد في الدّنيا وفاز بعرضه

تناول أفلاك السّما بيد الفخر

ومن للمعالي رام حسن تخلّص

يكن كعلي باشا أو انقاد للعزر

ويضيف قائلا :

"النوع مخلص قصيدة لي في بعض الإخوان أوّلها :

نسيت ولم أنس السّوار على الزند

ولا المقله النجلا ولا خفر الخدّ

ولا ليلة قد بتّ أرعى نجومها

أبثّ لها شكوى العتاب على الصد

وقائلة : ما بال عينك لم تنم

تكلّفها رعي الكواكب بالسّهد

فليتك لم تخلص بإشراكنا ولم

تقل عذلا في الخرّد الغيد والمرد

فقلت متى رمت التخلص إلى الذي

لحمودة باكير أرصده إلى الزهد

ويعلّق الخراط قائلا إنّ هذا (النوع عزيز الوجود (. . .) فهو صعب المسلك لا سيما على من كفّه من هذا الفن صفر) .

ثم يورد بعض الشواهد الأخرى من أقوال متأخري شعراء مصر وينقد أبا بكر بن حجّة الحموي بقول نستشف منه الحسّ النقدي لدى الخراط يقول :

"لما ذكر هذا النوع في شرح بديعيته، أخذ يمدح مخالص، وقصائده وإن كان غالبها محلّى عنده بالتورية، وقد عمل جعجعة في ذلك على عادته في مدح كل بيت من بديعيته بما لا طائل تحته، فظننت سيسفر صبح ما استشهد به من كلامه على إشراق تلتذ به الأسماع والأذواق ففاجأني من ذلك ما نبذته ورائي ظهريا، ولم أجد فيه بيتا عامرا بالمحاسن إلا ما كان منه خليا لا سيما قصيدته التي ذكر أنه مدح بها صدقة الدمشقي أولها :

سهام جفنك في الحشا رشقة

رفقا فما مهجتي التقت درقة

فاخذ يرسم من هذا المعنى والقافية الركيكتين . . . "

ويعلق الخراط على هذا البيت لابن حجه الحموي الذى اعتمد فيه التّصغير :

طريفي من لييلات الهجيرى

مقيريح الجفون من السهير

ويقول :

"لم يزل متأدبا على النّمط إلى تمام قصيدته وهي من أركّ ما سمعت، ولـولا اجتنـابي في كتـابي هذا ما تمجّه الأذواق لأوردت القصيدتين بالتّمام فليعذرني الواقف فيما انتقدته على ابن حجة.

ويورد الخرّاط اثر ذلك اشعارا للغراب الصفاقسي :

"هذا من تخلص الشّيخ البارع أبي الحسن علي الغراب الصفاقسي المحلّى بديباجة التورية في الأبيات التي كتب بها لنا درّة دهـره، وفـريد عصره، الشيخ المفتي أبـو عبد الله عبد اللّطيف الطّوير القيرواني وهي : (ص 13)

مـا نبـه الشـوق طيـر دوح

كـلا ولا بـارق الغويـر

لكـن مثانـي الثنـاء لمـا

سمعـت رنت علـى الطويـر

وقد ورد هذان البيتان في ديوان الغراب باختلاف والأصحّ ما ورد في "زهر الربيع" إنّها بخطّ الطوير، إلى صديقه وقد جاءتـا منسوبتين غلطا للخرّاط في مخطوط "مورد الضمآن" لمحمد الجودى القيرواني ويقول الخراط هذا ما كتبت به للشيخ المشار إليه من قصيدة

يذكرنـى سنـا برق الغويـــر
معصمهـــا وبسـام الثغيـــر
ويحيينـــي تنشــــق كــل روض
لمــا بالخدّ منهـــا مـــن زهيـــر
واعتنـق الغصـــون لقدهـــا إن
بـدت وأصبح شرقـــا في الفجيـــر
أيا غصنا لها زد في التثني
ويا ردفا ترفق بالخصير
بروحي من بنات البدو عذرا
أبت منا الهوى إلا العذير
أسائلها اللقا فتقول من ذا
رأى ريم الفلاة مع الحضير
فصبرا في الفلا قد ضاع شعري
ولبّى في هوى بيت الشعير
وقائلة على من بات قلب
أراه منك خفاقا كطير
الذّ الحبّ في سكّان ربع
ألذّ العشق في خود الخدير
ألذّ العيش حين نجسّ عودا
ونشدو بالثّناء على الطّوير

ويعلق الخراط :

"فإذ قلت اعتراضك على الشّيخ ابن حجّة في ركاكة ما أتى به من الألفاظ المصغّرة قافية في قصيدته يلزمك فيه ما يلزمه فإنك والشّيخ علي الغراب قد أتيتما بهذه القافية فيه مصغرة . . . " يبدو اذن من هذا الجزء من المخطوط أن أدباء العهد الحسيي لم يكونوا يتّبعون قوانين البديع والمحسّنات اللفظية والمعنوية اتّباعا أعمى ولم يكونوا مفرطين في التصنع ولا مغرقين في فنون التوشية والنمنمة والتنميق في الأساليب البلاغية المتكلّفة لكن كان لهم ذوق شعري ، وحاسّة فنية ، ورأي أدبي يعتدون به وموقف من المحسنات البلاغية يآخذون ما يطيب لهم منها ويرفضون ما يرونه ركيكا جافيا .

ويعتبر كتاب "زهر الربيع" كتابا أدبيا نقديا صرفا بما تضمن من أشعار وأحكام نقدية وتفنين لبعض الأساليب البلاغية وتعريف بها .

نـزهة الانظـار في عجائـب التواريخ والآثار

لمحمود مقديش الصفاقسي

هو درّة من درر التـاريخ التـونسي، من مخطوطـات دار الكتب التونسية. وقد طبع هذا الأثر طبعة حجرية نادرة سنة 1321 هـ / 1903 م وله نسخ عديدة بالمكتبة الوطنية لكننا سنقتصر على الاعتماد على مخطوط عدد 220 وهو يتكوّن من جزأين اثنين الجزء الأول يحتوي على 264 ورقة والثاني على 217 ورقة من الحجم المتوسّط.

ومحمود مقديش الصفاقسي صاحب هذا الكتاب من علماء صفاقس وفقهائها ومؤرخيها من القرن الثامن عشر المسيحي توفي سنة 1228 هـ الموافقة لسنة 1813م.

وتاريخه "نزهة الأنظار" هو من المؤلفات النادرة التي تتناول تاريخ مدينـة صفـاقس من النـواحي الجغرافية والاجتماعية والسياسية والعلمية منـذ الفتح الاسلامي إلى أواخر القرن الثامن عشر، فالمؤلف هو أحد أبنائها المطلعين على أخبارها والملمّين بتاريخها إلماما واسعا.

وقد ترجم له أحمد بن أبي الضياف في الجزء السابع من "الاتحاف" (ص 85 ـ 86) قال :

"الشيخ أبو الثناء الحاج محمود مقديش الصّفاقسي، هذا البيت من أنبه بيوت صفاقس، ونشأ صاحب الترجمة (محمود مقديش) في طلب العلم، فأخذ عن علماء صفاقس ثم ارتحل في طلبه إلى زاوية الجمني بجربة، ثم آرتحل إلى تونس ومصر، فأخـذ عن أعلام جامع الزيتونة والجامع الأزهر، ولما تضلع بالعلوم رجع إلى بلاده صفاقس، فأفاد وأجاد، ونفع العباد، وتزاحمت على منهله الورّاد، وأفنى عمره في هذا المراد، وأتى فيه بما يستجاد، وتلاميذه بصفاقس أعلام، وأئمة في الاسلام."

ويذكر أحمد بن أبي الضياف ثلاثة مؤلفات أخرى بالاضافة إلى "نزهة الأنظار" وهي :

1 ـ حاشية على تفسـير "أبي السعود" سمّاها : "مطلع سعد السعود، على تفسير أبي السعود".

2 ـ شرح نظم ابن عاشر في العبادات المسمّى : "المرشد المعين".

3 ـ شرح القلصـادي. ويعني به تأليفـه "إغـاثـة ذوي الاستبصار على كشف الأستار عن علم حروف الغبار"

ويعقب ابن أبي الضياف بأنه لم ير هذه التآليف لأنّها لم تصل إلى تونس.

وقد عثرنا على مخطوطة في صفحتين مسجلة تحت رقم 285 بدار الكتب الوطنية يترجم فيها لمحمود مقديش أحد تلامذته ترجمة أوسع وأدق، وهي :

شيخ مشائخنا أبو الثناء محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي، كان علاّمة زمانه، ووحيد عصره وأقرانه، قدوة الأشياخ، وياقوتة أهل النّقل والأبذاخ، له مشاركة في سائر العلوم من الفقه والنّحو واللّغة والبيان وعلم التفسير والحديث والتّوحيد والحساب والمنطق والعروض والتصوف والميقات والتعديل والهيئة وعلم الأحكام. وبالجملة فله قدم راسخ في سائر العلوم. قد اشتغل بالتدريس ببلده صفاقس مدة طويلة، وألّف بها تآليف مفيدة فمنها :

1 ـ حاشية على تفسير أبي السّعود العمادي في أحد عشر مجلدا ضخما.

2 ـ شرحه على المرشد المعين الشيخ عبد الواحد بن عاشر أجاد فيه وأفاد.

3 ـ حاشية على العقيدة الوسطى للشيخ سيدى محمد السنوسي في علم التوحيد لا نظير لها.

4 ـ شرح كبير على الشيخ القلصادي في علم الحساب .
5 ـ شرح ثان صغير عليه أيضا .
6 ـ تاريخه المشهور المسمى "بالدائرة" وهو مجلدان .
فالمجلد الأول لا يوجد له الآن ببلدنا صفاقس .

والحاصل أنّ جميع تآليف هذا الشيخ مفيدة غاية الافادة نفعنا اللّه بعلومه آمين .

وأضاف صاحب الترجمة ذاكرا مواطن هذه التآليف :
"وقد بلغنا أنّ حاشية أبي السعود توجد عند الشيخ الفاضل سيدى حسين بن حسن المفتي بالحاضرة، وأنّ شرح المرشد المعين" يوجد عند الأجلّ محمد بن محمد مقديش، وحاشية الوسطى توجد عند الشيخ الخطيب أبي عبد الله الحاج محمد شيخ روحه . وشرح القلصادي الكبير يوجد عند الأجل العدل الخطيب محمود الشافعى . وأن التاريخ المذكور يوجد عند الشيخ محمد شيخ روحه . هذا ما بلغنا والسلام . "

وتفيدنا هذه الترجمة عن مؤلفات مقديش ومواطنها والعنوان الذي اشتهر به تاريخه بصفاقس وهو "الدائرة" وهي تسمية مصيبة اذ أن كتاب "نزهة الانظار" هو دائرة معارف تاريخية وسياسية وعلمية واقتصادية عن مدينة صفاقس خاصة والبلاد التونسية عامة .

وتفيدنـا هذه االـتّرجمـة كذلك بأنّ الجزء الأوّل من هذا التاريخ لم يكن موجودا بصفاقس.

وتهمّنا معرفة التآليف لأنّها تدلّنا على سعة علمه وعن مدى تنوّع اهتماماته.

ولنأت إلى "الدائرة"أو "نزهة الانظارفي عجائب التواريخ والآثار"لقد ألّفه صاحبه بطلب من أحد أصدقائه طلب منه أن يؤلّف تاريخا شاملا لتونس عامة وصفاقس خاصة. لكن مقديش تردّد قبل تلبيته الطّلب لضخامة العمل المطلوب منه ولأهّميته ولأنّه لم يسبق إليه خاصة فيما يتعلق بصفاقس. ثم يقرّ العزم أخيرا على إجابته والشّروع في تدبيج هذا العمل بعد الحاح هذا الصديق وتكرار السؤال.

ولمقديش نظرية في تاريخ تونس إذ يعتبر أنه يقوم على ثلاث مراحل فاصلة وعلاماتها هي :

1 ـ الفتح الإسلامى على أيدي الصّحابة رضي الله عنهم.
2 ـ الفتح الموحدي على يدي عبد المؤمن بن علي.
3 ـ الفتح العثماني على يدي سنان باشا. يقول بعد مقدمة في فضل التاريخ :

"هذا وقد سألني بعض إخواننا من أهل العصر لـمّا سمع بعض مغازي الصّحّابة الأعلام رضي اللّه تعالى عنهم حين

فتحوا المغرب الفتح الأول ومغازى المجاهدين في سبيل الله (عبد المؤمن رحمه الله) لافريقية للفتح الثاني لما استولى عليها الكفّار من البلاد البحرية . ومغازي العساكر العثمانية لتونس عند الفتح الثالث لـمّا استولى عليها الكفرة اللئام فاستنقذوها رحم اللّه أسلافهم وأخلافهم وقرن النّصر براياتهم وطلب مني تقييد شيء من ذلك من أحوال أمراء الإسلام القائمين بحفظ المغرب من الفتح الأول إلى الآن، وتحديد المغرب برّا وبحرا، وذكر بلدان المغرب وخواصّها وسكّانها ومساحة ما بينهما مع ذكر أهل الفضل من العلماء والصّالحين وذكر أحوالها مع ذكر ما تيسّر من فضلاء غيرها على سبيل الاختصار، فرأيت فيما دون ما طلب خرط القتاد سيما من مثلي ممّن لا مادة ولا مدّة له في تعاطي هذا الخطب العظيم الشّان، ومع ذلك فلست أعدّ نفسي أهلا لأن أكون من فرسان هذا الميدان، وأخرى وأنا في بلد مطروح في زوايا الإهمال، لإقبال أهله على تحصيل الدّينار والدرهم والسّعي على العيال، ولم يعتن الماضون بضبط أحوالها فأكد عليّ السائل الطلب وصار لي كالغريم الممطول، ومدافعتي له كالفضول.

فتصفّحت ما لديّ من المادة فإذا هي بضاعة مزجاة وقد جرف الطاعون من بلدنا من كنّا نعده من الرّواة، ورأيت أنّه لا يصلح لهذا الأمر إلاّ الوزراء وأرباب الدّول الذين يتقلبون

في ظلال الملوك والسّلاطين ويطالعون خزائنهم المحتوية على مادة التّواريخ ويتدارسونها كلّ وقت وكل حين، وتتصرف على أيديهم حوادث العصر والأوطان، ووقائع السّلاطين والبلدان، فاحجمت عما سئلت إحجام العاجز الكليل وتقاعست عن التقدّم لهذا الخطب الجسيم، إلا أنّ السائل حسب أن كل أبيض شحم وكل أسود تمر وظنّ أن هذا الأمر عندي على طرف الثّمام وإنّما مما يقال في أيسر أيام. فجعل يكرّر السّؤال المرّة بعد المرّة، وأنا أتعلّل في كلّ كرّة، فشبّهت حاله معي بحال الطّفل الصغير، إذ يظنّ أنّ أباه على كلّ شيء قدير".

ونلاحظ عن أسلوب مقديش أنّه أسلوب واضح غير معقّد، ناصع غير ملتو، لا تشوبه شائبة السّجع والمحسّنات اللفظية وكأننا إزاء أسلوب معاصر يدلّ على نضج الرؤية والتفكير. وقد قسم مقديش مصنّفه إلى مقدمة وإحدى عشرة مقالة مبوّبة بدورها إلى أبواب، وينتهي المخطوط بخاتمة طويلة جدا تكاد تستهلك نصف التأليف خصّصها لتاريخ صفاقس.

وقد قسّم الحديث عن صفاقس إلى أربعة أبواب :

الباب الأول : في ذكر وضعها ووصف معالمها : السّور والأبواب والمياه والأودية والفسقية والفنادق.

الباب الثاني : في ذكر ولاتها من عهد الصنهاجين إلى بنى الحسين مرورا بالحفصين ووصف الأحداث التاريخية بها.

البـاب الثـالث : فيما وقع لأهل صفاقس من الجهاد في العصور المتأخرة لما اشتدّ جور مالطة والفنيسان ووصف تعاون أهـل صفـاقس على صنـاعة السفن وبذلهم الأموال لانشاء المـراكب الحربية وذكر الحروب التي دارت بين صفاقس من جهة والغزاة من مالطة والبندقية من جهة أخرى.

البـاب الـرابع : في ذكر علمائها وصلاّحها وأوليائها منذ الفتح الاسلامي.

ويبتدىء المؤلّف في هذا الباب بمن اجتمع بمالك بن أنس رضي اللّه عنـه كأبى خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي ثم يترجم لعلماء صفــاقس كالشّيخ علي النـوري والشّيخ علي الكراي ويعلّق على التّسميتين :

« وسمّي النـوري لأنـه سمـع شخصا يقول له في مصر اذهب نوّر القوم بالمغرب ولا تبق بمصر - فاشتهرت وسمّي النّوري -

أما الشيخ علي الكراي فقد « سميّ بذلك لأنه كان يكثر تكرير القرآن العظيم فابدلت الراءياء ».

ونـلاحظ أنّ بقيّة فصـول الكتاب مختلفة الطّول متفاوتة الأهمية أهمّهــا الخــاتمـة وبعض الفقـرات التي تتخلّل متن

التصنيف والتي تتعلّق بتاريخ البايات وأمراء تونس وخاصة بالحياة العلمية والفكرية بالبلاد عامة.

وكثيرا ما يستطرد المؤلف في الحديث عن صفاقس وعن بعض الأحداث التي وقعت بها يرويها عن خبرة واطلاع دقيق. وقد اعتمد على مصادر عديدة اسلامية وتاريخية تتعلّق بتاريخ افريقية. فقد رجع إلى المالكي والبكري والتجاني وابن الأثير والسيوطي وغيرهم، واعتمد بالخصوص على مشاهداته الشخصية ومروياته المباشرة عمّن اتصل ببعض هذه الأحداث وحضرها.

وكثير ما يعبّر عن آرائه الخاصة وانطباعاته الذاتية يقول عن تونس في المقالة الأولى:

"وأقول إنّ تونس حرسها اللّه تعالى من كلّ سوء هي الآن كرسيّ إفريقية، ولا كرسيّ بها غيرها، اذ هي مقرّ ملكها ودار سلطانها، وجميع ما ذكر من أوصاف الحسن لغيرها من بهجة الدنيا والعلماء والصلحاء والملوك والخيرات والمتاجر والعزة والنخوة والمراكب والأرزاق، وكلّ شيء يذكره اللّسان في سائر البلدان فقد احتوت تونس في عصرنا هذا منه على الحظّ الأوفر، ويكفي في وصفها أنّ السّفار قالوا لم ير الواؤون مثلها والنّفوس فيها راغبة، والطباع مائلة، والخارج منها يعد نفسه بالرّجوع إليها، واسمها مشتق من الأنس، فهو اسم طابق

مسمّاه وهي وإن أصابها من نوائب الدهر من الهرج والمرج ما أصاب غيرها إلا أنّها بفضل اللّه تنقضي فتنتها بأقرب حين، وترجع إلى أحسن مّما كانت عليه من الوثاقة والتمكين، (ص 35 و 36) وأما حسن البناء ونزهات الطرقات ونظافة الثياب وجمال الصورة ذكرانا واناثا وحسن الأصوات ونجابة الخيل (. . .) فهي بذلك مشهورة وكذا أنواع الطّيب فهو بها تجارة عظيمة (. . .) ولا سيما عطر الورد الذي لا نظير له في معمور الأرض (. . .) ولهم لطف الخطاب وحسن سياسة وآداب مشهورة، والمسؤول من اللّه تعالى أن يحميها وجميع بلاد الاسلام من عين سوء وأن يؤمّن أوطانها وينصر سلطانها".

ويمكن أن نعدّ "نزهة الأنظار" وثيقة تاريخية مهمة عن العمران التونسي في عهد الدولة الحسينية قبل الحماية، يقول مثلا عن القيروان (ص 35 ب).

"هي مدينة في غاية الحسن يحيط بها من جميع جهاتها فحوص ومزارع الحنطة والشعير وهي أكبر غلاّتها(. . .) وجميع جناتها ومزارع بقولها في داخل سورها، ولم يكن بها خارج السّور شيء يعوّل عليه، والعرب تجاور أرضها وتأتي بأنواع الحبوب إليها وبالسّمن والعسل ما يكفي أهلها غدقا ويعمل بها من الخبز وأنواعه ما لا يمكن عمله في غيرها من البلدان".

وأحيرا هو كتاب يعج بالافادات التاريخية والثقافية الدّقيقة التي قلما نجدها في غيره من المصادر، ونحن نلفت إليه انظار الباحثين عساه يحقّق وينشر.

القيروان في القرن التاسع عشر
من خلال رحلة انكليزية

من الرحلات النادرة إلى القيروان في القرن الماضي رحلة قام بها الانكليزي "ادوار راي" Edward Rae في الـربـوع التـونسية ونشرهـا بلنـدن سنـة 1877 تحت عنـوان "بلاد المغـاربـة" the country of the moors وترجمت هذه الرحلة إلى العربية ونشرت بطرابلس بدون تاريخ واستطاع هذا المؤلف زيارة القيروان وتقديم تقرير عنها. وقد شعر بالخطر في زيارته لها وكان على جانب عظيم من الحذر اذ قلما كان الأجانب من غير المسلمين يزورونها، اذ لايستطيع أي اجنبي أن يدخل المدينة إلا بتوصية خاصة من الباي إلى القائد ويعقد مجلس المـدينـة اجتماعا ولابدّ أن يوافق اعضاؤه جميعا حتى يسمح للغريب بدخول المدينة (ص 197 من الترجمة العربية). واستشهـد الـرحـالـة الانكليزي بقـول نسبـه إلى القنصـل الانكليزي "ريشارد وود" وهو "لا يسمح لأي مسيحي أو يهودي بأن يتخطى أبوابها ولابد أن يرافق الغريب واحد من حرس الحكومة لحمايته" (ص 198).

وقـد فكر إدوارد راي في التنكّر لدخول القيروان فاتّصل ببعض الصيادلة وتجار الحبوب للتحصّل على مساحيق يصبغ بها وجهه، إلا أنه تخلّى عن رأيه واصطحب خطابا من الباي إلى قائد القيروان محمد المرابط، سلّمه له القنصل العام، كما رافقه للمزيد من الحذر بعض الحرس امدّه بهم حاكم سوسة (ص 201).

وكان جنديان لا يفارقانه ليلا نهارا، ولم يسمح له بدخول القيروان إلا بعد الحاح شديد، وبعد غروب الشمس. وقد خصص له القائد جنديا يرافقه بعد أن تعهد بألّا يحملق كثيرا أو يكتب أمام الناس أي ملاحظة أو يتكلّم بأيّ لغة أروبية وبعـد أن تخفّى في ملابس عربية. وكان وهو يتجوّل داخل عاصمة الأغالبة يمشي على أعصابه، إذ لاحظ العيون تحدّق فيه وفي من معه وكان ينتظر كل لحظة أن يقذف بالأحجار.

وقد قدّم لنا هذا الرحالة الانكليزي بعض المعلومات عن مدينة القيروان كما سجل انطباعاته عن السكان وافادنا بكثير من الملامح عنها ـ فقد قيّد ان القيروان كانت قبلة للحجاج ومن زارها سبع مرات يعتبر كأنه حج إلى مكة ويلقب بلقب حاج (ص 271) وصوّرها كما تبدو من بعيد لداخلها إذ تبرز مئذنـة جامعـة عقبـة بن نافع بين أشجار النخيل ثم تبدو الحدائق الكبيرة والقباب البيضاء التي تلمع وسط النخيل.

وقارن المؤلف مئذنة القيروان بمآذن قرطبة واشبيلية، وشبه سور المدينة بسوري دمشق وقرطبة. وصوّر الأرض الممتدّة من أسفل السور ببساط عريض تفرشه الخضرة والزهور وتمتد الحدائق وهي تحتل مساحات كبيرة (ص 209). ولاحظ أن الحدائق منتشرة في الضواحي وهي مزروعة بالفواكه والزهور وخاصة بالتين الشوكي (ص 270 ـ 271).

ونتساءل اليوم كيف اندثرت هذه الحدائق وهذه البسط الخضراء زمن الحماية الفرنسية على تونس ؟ وكيف انقلب المحيط عموما إلى فلاة تذرو فيها الريح الغبار.

أما عن السكان فقد لاحظ الرحالة كثرة العمائم الخضراء على الرؤوس (ص 271) وكثرة مدّعي الصّلاح والمتزهدين وكتب يقول : ويظهر بين الحين والآخر مرابط أو شيخ نصف عار ويحمل معه الطبول. ان منظرهم كان كفيلا بأن يبعث على الاشمئزاز. وهم في الغالب جياع متعصّبون، معتوهون ويرتكبون احيانا أكبر الخطيئات ويحتمون خلف الدين وهم مرهوبو الجانب إلى حد كبير حتى من الطبقات العالية (ص 227).

أما عن النساء فلم ير منهنّ في الشوارع إلا العدد النزر أقلّ من أي مدينة أخرى (ص 227) واورد أن امرأة محجّبة فاهت له بكلمة ظنها كلمة طيّبة غير أن المترجم كشف له أنها

قالت كلاما كريما (ص 227). وهكذا كان دور المترجم كبيرا في تشويه سمعة السكان الطيبة.

وأفادنا الرحالة عن فرنسي كان يعيش بالقيروان واعتنق الاسلام، وكان يربّي أولاد القائد ووصفه أنه طويل القامة، ذو وجه حسن الملامح، يلبس عمامة بيضاء أو يرتدي ثيابا عربية تكشف عن ذوق سليم، له لحية قصيرة كعادة العرب (ص 215). حتى صار نموذجا كاملا للرجل العربي بسلوكه الشرقي وتقاليده (ص 216). وقدم لنا عنه معلومات، فاسمه سيدي حاج احمد أو محمد الحاج كما تعوّد أن يناديه. وأهله مازالوا في نورمانديا، ويملك اخوه بنكا كبيرا. والحاج احمد متحصل على الاجازة في الآداب من باريس والتحق بأحد الأديرة ثلاث سنوات لكنه خرج من الديانة المسيحية كما صرّح بنفسه لما رآه من النفاق والنذالة السائدة بين القساوسة، وأسلم بتأثير من الوزير خير الدين، ثم تعلم العربية وأعلن اسلامه ثم انتقل إلى القيروان وراح يقول :

نسيت حياتي القديمة، وتفرّغت للتعمّق في الدين الجديد وفلسفتي الجديدة في الحياة، وكنت أرفض كل شيء يذكرني بالماضي. فلقد أصبحت مسلما حقيقيا. وخلال معاملاتي مع المسلمين أكّدوا لي حقائق لم أكن أتخيل ان العرب يتحلّون بها من طيب خلق وسماحة وايمان. وأكاد أرى حولي نماذج حقيقية

للايمان العميق. واشتغلت بتربية أولاد القائد، وتعلّقت بهم إلى حدّ كبير، ويمكنني أن أقول وربما للمرّة الأولى في حياتي أني عرفت كيف تكون السّعادة. فأنا أعيش في هدوء وطمأنينة وراحة بال، وانقضى الماضي دون رجعة. وكل ما أطلبه من الحاضر هو أن أعيش في سلام. لا شيء يعكّر صفو حياتي. ولقد كان تحوّلي للاسلام مصدر دهشة للكثيرين، وحاول كل منهم ان يختلق الأسباب، وقد كان رأي بعضهم أنني فعلت ذلك لتحقيق طموح شخصي، ولكن هل يوجد طموح هنا بالقيروان. وقال آخرون ان الدين الجديد جذبني إليه بما فيه من ملامح الخير والانسانية.

سيدي لقد نذرت نفسي للطهر والايمان والبساطة. وصدّقني إن فكّرت في الزواج فلن أختارها غنية أو جميلة، فأنا لا أريد سوى متعة الروح (ص 274).

ولا ندري هل تزوج الحاج أحمد أم لا، وهل خلف عقبا بمدينة القيروان، كما نتساءل عن دور هذا الفرنسي في الاحتلال الفرنسي لمدينة القيروان سنة 1881 خاصة حينما واجهت فيها الثورة الجنود الفرنسيين. وكانت القيروان مع صفاقس المركزين المهمين للمقاومة الشعبية. اذ ان فرسان جلاص الأشاوس قد اذاقوا الفرنسيين وبالا من أمرهم ولم يستطيعوا احتلال القيروان إلا بعد مقتل رئيس المقاومة. وبعد

أن طوقت المدينة ثلاث سرايا حربية. وقد عبّر الحاج احمد للسائح عن كثير من آرائه حول النصرانية والاسلام والقرآن من ذلك، أن الاسلام أكثر روحانية من المسيحية وأن تطرف القساوسة قد حوّل الكنيسة إلى مسرح هزلي (ص 275) وأن في القرآن ما يكفي كي يضمن المرء الفردوس لنفسه لو اتبع تعاليمه وآمن بها (ص 275). وقد تأثر السائح بذكائه وعمق اقتناعه وتعجب كيف تحوّل إلى الاسلام مع أنه "جاء من اخصب البلدان علما وثقافة وليس من السهل - حسب قوله - ان يتحوّل عن دينه بمبّررات واهية" (ص 275).

ومن فوائد هذه الرحلة وصف الكاتب لبعض عادات القيروان خاصة في الطعام، ذكر لنا العصيدة التي تؤكل بالعسل ومالذ وطاب من المآكل مثل الكسكسي واللحم المحمر والأرز (ص 218 و 272).

وتكمن أهمية هذه الرحلة خاصة في وصف المصانع والمعامل التي كانت تعج بها مدينة القيروان وقضى عليها الاستعمار الفرنسي فيما بعد، وكانت تشهد حياة اقتصادية مزدهرة - فقد وصف لنا مصانع الحبال التي يستخدمها البحارة و مصانع الحصر المختلفة الأنواع، الرقيق منها وذات النقوش الجميلة والمظلات (ص 220)، ومصانع الألبسة والبرانس الصوفية (ص229)، ومصانع الزرابي والأبسطة المتميّزة

حسب فوله وحسب المشهور إلى يومنا هذا بالنقاء والجمال والأصالة. وقد استحال على السائح أن يزور مصنعا للزرابي لأن النساء يشتغلن هنالك. (ص 277) وحدثنا الرحالة عن مصنع للصابون ويقع في "مكان مظلم أرضي توجد به أوعية ضخمة مليئة بالشحم والزيت" (ص 278). وحضر جميع مراحل الصنع من مرحلة الغلي حتى التبريد والتقطيع.

وأخيرا فإنّ لهذه الرحلة اهميتها الكبرى عن القيروان في الفرن الماضي، فهي الوحيدة في علمنا تصور هذا العالم النقي الصافي الذي لم تدنّسه بعد يد الاستعمار البغيض في آخر القرن الماضي.

صدر لأحمد الطويلي

في البحث :

* أبحاث في الأدب والتاريخ، دار ابن عبد الله التوزيع والنشر، تونس 1979 .
* في الاصلاح والحنين إلى الأوطان، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس 1984 .
* في النقد والأدب الشعبي، دار بوسلامة للطباعة و النشر تونس 1984 .
* مظاهر من الاتصال الفكري والأدب بالمغرب، الموسوعة الصغيرة، رقم 193 ، بغداد 1986 .
* قضايا في النشر العربي المعاصر، جامعة سيول، الجنوبية 1985 .
* في الحضارة العربية بتونس في العهدين والحسيني، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، 1988 .

في التحقيق :

* رسالة المناعي إلى أحمد باي الأول، الدار التونسية للطباعة تونس 1977 .

* ديوان عبد اللطيف الطوير القيرواني، الدار العربية للكتاب، تونس ـ ليبيا 1981 .
* مقامات السيوطي، دار سحنون للنشر والتوزيع، ودار الدعوة بتركيا. اسطنبول 1988

سلسلة أدباء العرب والطرائف :

* رهين المحبسين أبو العلاء المعرّي، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس 1981 .
* أبو عثمان الجاحظ، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1983 .
* محمود المسعدي وكتابه حدث أبو هريرة قال، دار بوسلامة ـ تونس 1982 .
* البشير خريف، حياته ورواياته، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس 1988 .

القصة وأدب الرحلة :

* قسمة وطرح، الدار العربية للكتاب، تونس ليبيا 1977 .
* الليل يأتي، مؤسسات سامي للنشر، تونس 1985 .
* من سيول إلى سنغافورة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1988 .

الفهرس

اشعاع تونس الحضارى في العهد الحفصي 7

الحياة الثقافية بافريقية في القرنين السابع والثامن الهجريين . . . 24

فشل الحملة الصليبية الثامنة على تونس 41

مساهمة المنستير في الحياة الثقافية في العهد الحفصي . . 70

نتف من اكمال الاكمال أو لمح من الحضارة العربية بتونس . 90

الاصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة 125

ديوان محمد الرشيد باي ونشاطه الأدبي والثقافي . . . 135

وثيقة عن حسين باي بن علي بالقيروان 152

العقد المنضد في اخبار المشير الباشا أحمد 161

زهر الربيع في محاسن البديع 169

نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأنظار 186

القيروان في القرن التاسع عشر من خلال رحلة انكليزية . . 197



هذا الكتاب

هو مجموعة دراسات تتصل بوجوه من الحضارة العربية بتونس في العهدين الحفصي والحسيني، وخاصة بمظاهر ثقافية وأدبية وسياسية

المؤلف

الدكتور أحمد الطويلي استاذ جامعي متحصّل على التبريز في اللغة والآداب العربية سنة 1976، ودكتوراه الدولة في الآداب بتونس سنة 1985.

نشر حوالي عشرين كتابا في البحث والتحقيق والقصة.

نشر أبحاثه ومقالاته في الكثير من الصحف والمجلات بتونس والمشرق.

شارك في ملتقيات علمية عديدة بتونس والخارج.

تم سحب خمسة آلاف نسخة من هذا الكتاب الثمن : 2.500 د. ت.
تدمك : 9 ـ 12 ـ 712 ـ ISBN : 9973